سيرة أمومة عبر الحدود

رسائل أم إلى ابنها

نهى بيومي

يتميز أرشيف مراسلات العائلات اللبنانية بالطابع المكتوم، مع أن حيوات العائلات التي تودعها في رسائلها تمتلىء بالتاريخ الذي يحتاج إلى إعادة تركيب في سياقه واستنباط نبرته، حتى لا تسترده الأبدية الميتة وتحيده في منطقة عازلة، بل ندعه يتخلى عن عطالته، فنستشعر الكينونات عن قرب رغم البعد الزماني والمكاني، ونستردها في حيويتها. نعيش في حالة إرباك وفوضى في عملية تقصي معاني حيوات النساء، ربما عاد هذا الإرباك إلى أن العالم الذي نعيش فيه لم يعد يمنح المعنى تلقائيا، الأمر الذي يدعو إلى بذل الجهد لتوضيحه وفهمه مستخدمين استراتيجيات الفكر واللغة والأحاسيس والخيال، عبر أنواع مختلفة من الكتابة لا سيما الرسائل.

إن البحث الثقافي /الاجتماعي مهم كي نستنبط المصادر المختبئة ونستنطقها، فالرسائل إلى كونها "كتابة الذات" وسيرة ذاتية غير مقصودة، فإنها تؤرخ أحداثا وترسم صورا عن أدوار النساء عبر الأجيال وعلاقة الرجال بالنساء وتُقدم تاريخ الذهنيات. يحفر أرشيف الرسائل دربا مميزا لتجديد التفكير في تاريخ التمثلات، هذا الرهان شجعنا على الخوض في دراسة رسائل أم لبنانية موجهة إلى ابنها المهاجر.[١]

هل هذه الرسائل عادية؟ لا يوجد العادي في الكتابة إلا عبر النظرة إليها. إلينا يعود أن نتخيل أجواء الرسائل، وأن نموضع بلاغتها ونلتقط انحرافها؛ وهي مجتمعة تشكل شبكة فيما بينها، يضاف إليها المعرفة المتحققة من مصادر أخرى خارجة عنها، وعبر هوية دارسها.[٢] الرسائل قبل أن تكن طريقة في الكتابة، هي طريقة في العيش تقود العلاقة وتحتفظ بآثارها، مفتوحة على التغيرات في الزمن، تكشف عن "أشخاص" وليس عن شخصيات. تعيد الرسائل بناء الوقت، وتنشأ وثائق وظيفتها إظهار وقائع تاريخية، وإعادة خلق مرحلة ما وإحياء مشاعر خفتت وإظهار المعاش وتجاربه.[٣] من المؤكد أن قراءة سيرة ذاتية أسهل من إعادة بناء مسار حياة في مرآة المراسلة المتشظية. فرسائل الأم حين يكون ابنها في بلاد بعيدة، فإنها تنحو نحو إعطاء أخبار العائلة، وطمأنة المغترب إلى أن الأمور تسير على ما يرام، كي يتقدم في حياته ويحتمل هجرته. تعكس الرسائل إلى المهاجرين الحاجة الحميمة للحفاظ على الرباط العائلي وإبقائه حيا، والمحافظة على الصلات مع البلد عبر العلاقة الوطيدة بالبيت الأسري، فالوطن هو البيت أولا. تتمتع الرسائل بقدرة على الفعل بالكلمات، أي في إنتاج قيم قولية فاعلة، وتفتح حوار الذات الباحثة عن تأكيد وجودها، ليشاركها المُرسل إليه أفراحها وأحزانها، هو الذي يحتاج بدوره إلى تأكيد وجوده من خلال هذه العلاقة. إنها صيغة استراتيجية حاسمة لبيان الاتحاد في الوجهة بين المرسل والمرسل إليه الذي يجمع على نحو خفي بينهما، بين الغياب والحضور، وذلك من خلال السعي إلى الكشف عن التواشج الخفي بينهما في تدبير الشوق والحفاظ على الروابط.

---

[١] الرسائل تعود إلى الفترة الواقعة ما بين ١٩٨٥ و٢٠٠٢.

[٢] Philippe Lejeune, Tri, in La Faute à Rousseau, Correspondances, octobre 2003-N 34 p.51.

[٣] Georges May, L'autobiographie, pp.133-134, puf, Paris 1997.

رسائل عادية، نعم. غير أنها تمتلك السلطة الاجتماعية للكتابة التي تتيح فرصة إجراء تصوير شعاعي لدور المرأة/ الأم وعلاقتها بابنها، إذ تقدم رسائلها ذاتية ملفتة على أكثر من صعيد: حبها المحموم لأولادها، تشكيلها مرجعية عائلية محورية جاذبة لعودة الأولاد، وعيها الحاد بضرورة دعم أولادها معنويا في مسعاهم عبر اتخاذها مواقف ايجابية منهم. لذلك سأحاول استكشاف الطريقة التي انبنت بها الذاتية الامومية في الرسائل للتعرف إلى مصادر أفكارها: الممارسة التجريبية الشخصية، فهمها للمعيش اليومي ولمعنى وجودها في العالم، انه المصدر الذي لا يمكن التنصل منه، أي براديغم الوعي، البنية الأولى لفهم المعيش بوصفه سياقا دلاليا يحيل إلى العالم العلائقي. حسب هيدغر العالم علائقي، جملة من العلاقات والإحالات بين الموجودات التي تجد نموذجها في اللغة اليومية. ذلك يحيلنا إلى وجوب قراءة هذه الرسائل كفضاء بناء علاقة أمومية، وكمكان للتفاعل بين الأم وابنها[٤].

إن قراءة الرسائل مغامرة شبه روائية، إذ نتتبع حيوات مجهولة عبر أصدائها السير ذاتية؛ كما لو أننا أمام مرآة نتعرف فيها إلى أنفسنا أيضا كمجتمع وثقافة ونساء[٥]، فنعيد بناء مقولاتنا وتصوراتنا ونضعها موضع السؤال، لربما وفرت لنا أدوات التحرر من خطابات نمطية حول النساء.[٦] من البديهي اعتبار الرسائل الخاصة الحميمة العائلية ذاتية، لكن هل تتجسد الذاتية في هذه الرسائل، خاصة حين يكون المُرسل أم شرقية ولدت في الربع الأول من القرن العشرين؟ إننا نتساءل عن مدى إمكانية النساء التعبير عن أنفسهن وفق تجارب الذات وصورهن عنها. ومع أني لا أقف عند عتبة بعض المقولات من أن المرأة مقهورة ومغبونة، فإنني أيضا لا استسهل فكرة أن النساء بمقدورهن التعبير عن أنفسهن كيفما شئن أو رغبن وأن الأمر يتعلق بهن وبجهدهن وحده. بين هذين الموقفين المتصلب والمتراخي أقف باحثة في مجال آخر خارج عنهما، علني أتلمس امكانيات التعبير الذاتي الأنثوي ومجالاته وحدوده ضمن النسق الاجتماعي/الثقافي المسيطر، وضمن التمثلات الثقافية للأنثوي وكيفية تلقيها من قبل الأنثى وإعادة إنتاجها بشتى تلويناتها لدى شريحة من النساء لم تحظى بمستوى تعليمي متقدم، خاصة وأن الأنا أسيرة "التماهيات المتخيلة" وفق لاكان الذي يؤكد " أن الأنا التي نتعامل بها هي مجموع هذه التماهيات المتخيلة. ولكن هذه الأنا بحكم هذا الاستنتاج تبقى دائما ناقصة مقارنة بمثال الأنا. هنالك دائما مسافة تباعد بين الاثنين. يسعى الإنسان دائما إلى تقليصها، دون أن يتمكن من إنهائها. لذلك يقول لاكان بأن قدر الإنسان أن يبقى متأرجحا في علاقة مزدوجة".[٧] بناء على هذه الأطروحة نتساءل أولا، ما هي فرص ذاتية الأم التي تنتمي إلى النصف الأول من القرن العشرين وذات مستوى تعليمي محدود، في الابتعاد عن مثالات الأنا حول المرأة/الأم؟

---

[٤] لا يمكننا قراءة الرسائل دون التساؤل عن ماهية الروابط العائلية في لبنان حيث لا تتوقف هجرة الأبناء عنه. فالروابط مهددة بالحدود وبالزمن، إذ يعش الأبناء في أمكنة وثقافات أخرى ، فهل تصبح الروابط العائلية رمزية؟

[٥] اشتهرت النساء تاريخيا في كتابة الرسائل في الغرب .idem, p.32

[٦] إن احتفاظ الابن برسائل أمه فعل يحمل دلالة على وجوده وعلامة على هذا الوجود بالنسبة إلى كائن آخر محوري في حياته هو الأم. لم يكتب رسائل إلى امه، لكنه أجاب لاحقا فنيا على رسائلها عبر لوحات الكولاج التي صنعها من رسائلها. أنظر:

Francoise Simonet-Tenant, Enquête, in La Faute à Rousseau, op.cit, p. 31 .

[٧] عدنان حب الله، بزوغ الأنا وعلوم الأعصاب، في أعمال المؤتمر الأول للمحللين النفسيين العرب، فكرة النفس عند العرب وموقعها في التحليل النفسي، الفارابي، بيروت ٢٠٠٥، ص.٨٦.

إذا كان التحليل النفسي محقا في تأكيده من انه " بمجرد دخول الذات عالم التعبير، تصبح اللغة المحتوي والمحتوى لها(...) وأي قول يصدر عن الذات يؤدي حكما إلى انقسامها ما بين وعي حاضر وما بين معرفة لا واعية تستخرج من الأولى."[٨] فإننا نتساءل ثانيا، إلى أي حد تفصح الرسائل الحميمة عن ذاتية المرأة/الأم الواعية واللاواعية؟ وهل الحميمية كفيلة بإظهار صور ذاتية، أكثر تحررا من المثالات تجسد خبرة المرأة/الأم/الزوجة؟ إذ نعتقد أن جيل الأمهات اللواتي انتمين إلى المنتصف الأول من القرن العشرين أكثر انخراطا في شبكة الخارج التي تستدعي المحاكاة[٩] من انخراطهن في العالم الداخلي[١٠] الحميم المفتوح على الخبرات الحية[١١]. وبالتالي تحتكم المرأة/الأم في تصور وممارسة أنوثتها وأمومتها إلى قوة الخارج أكثر من قوة الداخل، أي التجربة. هكذا يبقى الداخل في حالة كبت أو "تقية"[١٢]، "وقد انعكس محو الداخل، على الصعيد الاجتماعي، في ممارسات شطرت الإنسان" [١٣] بين مضمر/معلن وداخل/خارج. إن هيمنة الخارج وطمس الداخل حوّل الأمومة إلى "أسطورة" يصعب نقدها، ويتم التعامل معها كما لو أنها فعل تكراري، منعزل عن الزمان والمكان وحيثياتهما. ذلك دفع أخصائية في التحليل النفسي كلاريسا بنكولا للحديث عن حياة المرأة " كمخلوق متنكر" يعتمد على محاكاة النموذج السائد بمعزل عن الرغبة والتجربة [١٤]. لذلك تعلن البحث عن المرأة الغريزية القابعة في أعماقها وتسميها "المرأة الوحشية"[١٥]، قاصدة استكشاف " تلك العلاقة–مع الأنوثة الوحشية– التي ربما أهملناها حتى بهتت أو دفناها تحت ركام الأعمال المنزلية أو توارت خلف محاذير الثقافة المحيطة بنا."[١٦] وتقصد بالوحشية عيش الحياة الطبيعية التي يتمتع فيها الكائن بوحدته الداخلية وحدوده القوية[١٧]. والحال إننا نتساءل ثالثا، إلى أي حد امتلكت أليس حدودها القوية وخرجت عن المحاكاة؟

يقول Benveniste إن الإنسان يتكون في وباللغة كذات، ذلك عن طريق استملاكه بعض الأشكال التي تضعها اللغة تحت تصرفه وأولها استخدام "الأنا" حيث أن استخدامها هو في أساس الوعي بالذات.[١٨] نتساءل رابعا، هل الأم حرة اللغة والوعي في خطابها؟ وهل استخدام اللغة المحكية يحرر ذاتها ويطلقها؟ إذ يثير المحلل النفسي مصطفى صفوان مبدأ إنسانية اللغة ويدعو إلى اعتماد اللغة الدارجة[١٩] تحقيقا للتنمية الإنسانية. لذلك أتساءل

---

[٨] المصدر المذكور، ص.٨٥.

[٩] نقصد قوة العادات، التقاليد، الدين، الفكر المحافظ، تجارب اجتماعية محصورة في أطر ضيقة حيث الفصل حاد بين الخاص والعام.

[١٠] أي المبني على التجارب الفردية المستجدة في الزمان والمكان.

[١١] أدونيس، أهناك ذاتية في الثقافة الإسلامية السلفية؟ في: أعمال المؤتمر الأول للمحللين النفسيين العرب، ص.٢٩.

[١٢] المصدر السابق، ص.٣٠.

[١٣] المصدر المذكور، ص.٣١.

[١٤] كلاريسا بنكولا، نساء يركضن مع الذئاب، الاتصال بقوى المرأة الوحشية، ترجمة مصطفى محمود محمد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة٢٠٠٢، ص.١٢. تقول:" هكذا مثل الكثير من النساء قبلي ومن بعدي عشت حياتي كمخلوق متنكر. وكما كنت أرى أهلي وعشيرتي، أخذت أخطو في خيلاء وبراعة بالكعب العالي وأتأنق في ملبسي وبقبعتي في طريقي إلى الكنيسة. بيد أن ذيل ثوبي الخرافي كان يتجرر على الأرض خلفي يعوقني، وأناي تلتوي بشدة تحت حافة القبعة التي تتدلى على عيني وتحجب عنها الرؤية البعيدة".

[١٥] المصدر السابق، ص.١٣.

[١٦] المصدر المذكور، ص.١٤.

[١٧] المصدر المذكور، ص.١٥.

[١٨] أنظر :Subjectivité, in Dictionnaire d'analyse du discours, Seuil, Paris 2002, pp.552-553

[١٩] مصطفى صفوان، الكتابة المقدسة والعبودية المختارة، في أعمال المؤتمر الأول للمحللين النفسيين العرب، ص.١٥٢. يتحدث عن ضرورة " الأخذ بعين الاعتبار مبدأ إنسانية اللغة الذي لعب دورا أساسيا في تطوير الشعوب في مسار تاريخها، فبعد أن كانت اللغة اللاتينية هي لغة الخاصة المميزة وتنحصر العلوم بها، تحولت الدول الغربية إلى اعتناق لغة الأم، أي الدارجة، وأدخلتها في برامج التعليم في المدارس، مما فتح المجال أمام عامة الشعب وكتابتهم محصورة في حلقة نخبة المثقفين، نظرا لأن العامة ليس لها مدخل على هذه اللغة المتداولة."

خامسا، ما إذا كانت رسائل الأم التي كتبت باللغة الدارجة الممهورة ببعض التعابير الفصحى، مكنتها من الإفصاح عن ذاتيتها، وفتحت حظوظها في التعبير.

إن استدعائي لهذه المقولات المتعلقة بميدان التحليل الثقافي والتحليل النفسي استعين بها بهدف تعزيز إمكانية استكشاف تجليات الذاتية وحدودها عند امرأة/أم عبر رسائلها. ولا نغفل في هذا الإطار ما يدور بين الذوات، إذ إن علاقة الأم بابنها متعددة الأبعاد (هو/هي/العائلة/المجتمع/الدين) تجدل مصير الذات وتشكل بعدها الخيالي. وقبل ولوجنا سبل دواخل الأم عبر رسائلها، سوف ندخل إلى عالمها عبر ابنها فنقدم تعريفا عنها من خلال مقابلات أجريناها معه.

من هي أليس؟

أليس دورة، شخصية مكافحة، جريئة، صلبة، عاطفية، رومانسية وقوية تعرف ماذا تريد. هذه صورتها التي قدمها ابنها بإعجاب، وبنظرة راضية تطلع إليها باحثا عن ذرائع تؤكد ما ذهب إليه في توصيف شخصيتها المميزة. ولدت عام ١٩٢٥ في الميناء في طرابلس، في كنف عائلة مكونة من ثلاثة أبناء وبنتين. توفى والدها باكرا ولم تتجاوز الخمسة عشر سنة. آنذاك كان وضع العائلة المادي حرجا لا يسمح بتعليم جميع الأبناء. تركت أليس المدرسة، وزادت عمرها إلى ثمان عشرة سنة كي تتمكن من العمل في دائرة البريد والهاتف في طرابلس، وبقيت في هذه الوظيفة لغاية تقاعدها. أخبرت ابنها قصصا عن معاناتها وكيفية مواجهتها الظروف الصعبة بقوة التحدي[٢٠]، مع ذلك تمكنت من مساعدة أخيها الصغير في تعليمه. حين أصبحت في أوائل الثلاثينات قررت الزواج، صدف أن اصطافت في الكورة حيث يعيش زوج المستقبل، تعرفت إليه، ولم يكن زواجها تقليديا عن طريق العائلة، استلطفته ووجدته جميلا، وكانا متقاربين في السن. ساد آنذاك في الضيعة تقليد بقاء الأبناء فيها بعد الزواج، لكن أليس رفضت ذلك، إذ أنجبت أربع أولاد ذكور وأرادت الانتقال إلى المدينة، كي يتلقوا التعليم المناسب.[٢١]هكذا حدد الابن صورة أمه في إطار أسري متماسك، ووصف حياتها قبل الزواج بأنها خارجة عن التقاليد، على مستوى عملها وتحملها بعض أعباء عائلتها الاقتصادية، وسياقها للسيارة وممارساتها لبعض الهوايات والفنون[٢٢]، وأيضا في اختيارها للزوج واستمرارها بالعمل واختيارها سبل تعليم أولادها.

إننا نتناول سيرة امرأة بعد التقاعد من العمل وهجرة أولادها الأربعة. وجدنا امرأة من خلال مقابلة الابن ووجدنا أما من خلال قراءة رسائلها. يبرز دورها الأمومي من خلال رسائلها بقوة، ونجد أن حدود الرسائل ثلاثة: الحدود الأولى، تلك التي تفصل البلدان واللغات والثقافات حيث يعيش أبنائها. الحدود الثانية، نوع الكتابة، التراسل أو الفكر المترحل، الذي يهدف إلى تعديل مسار حوار مع الابن يصعب إقامته بسبب الحدود الفاصلة، والى البحث عن الانسجام وإزالة التفاوت العاطفي، كما يهدف إلى تعليق الزمن والمسافات. ذلك مع المحافظة على المسافة الفاصلة التي تحفظ الحرية الداخلية في قول ما يراد قوله. ثالثا، تقدم الرسائل شكلا مختلفا من أشكال التعبير

[٢٠] كانت على سبيل المثال، تسير يوميا وهي صغيرة في السن، لمدة ساعة كي تصل إلى عملها.

[٢١] يقول ابنها كميل زكريا:" إنها جد مصممة فهي اقنعت أبي أن يترك الضيعة للعيش في طرابلس. ليس أمرا هينا إقناعه بذلك وهو يملك بيته في الضيعة، بيت جميل، إضافة إلى وجوده بين أهله. ثم جرته إلى طرابلس. هذا ليس أمرا هينا."

[٢٢] التمثيل المسرحي والرسم.

عن الذات. إنها الكتابة الحميمة حيث توضع الذات على المسرح، وتظهر المواقف والاستراتيجيات السردية حيال التمثلات الثقافية للأم. إنه المرور من حالة إلى أخرى بين أنا/الأم وأنا/الفرد.

على أنها في جميع الحالات أم واثقة من قيمها وجدارتها، لم تستسلم لغربة الأولاد بل شرعت في الكتابة إليهم، ومضت تعزز انتمائها إليهم وانتمائهم إليها. إنها أم روحية ودنيوية.[٢٣]

أليس بعد الزواج:

للأم صورة واضحة عند الابن تؤكد على قوة شخصيتها ودورها في تمتين العلاقات الأسرية، منها اكتسب حب الإخوة والالتزام بهم، أم ايجابية في نظرتها إلى أولادها، تعطي أفضل صورة عن نفسها وعن زوجها وعن أولادها. وللأم صورة ملتبسة، إذ تبدو له قوية ومتحفظة في آن. لماذا؟

فيما يخص الصورة الأولى، يعيد الابن تماسك الأسرة إلى الأم[٢٤] لكن ظروف التعلم في الحرب والظروف الاقتصادية دفعتا الأبناء إلى الهجرة. يصف مشاعر الأسرة التي انكسرت حين غادر أول ابن إلى أميركا[٢٥] حيث "صارت الهجرة هينة". هناك امتحن موروثه الأمومي في الالتزام بالإخوة. يتوقف عند ايجابية الأم، رادا ذلك إلى خاصية العطاء عندها ومطالبتها بالقليل[٢٦]، ثم يؤكد حضورها القوي وتدبيرها شؤون الأسرة حين كان طفلا [٢٧] متنبها إلى حنانها، ملاحظا قوتها "لكن ليس بمعنى التسلط".

أما صورتها الثانية الملتبسة فإنها تتصف بالتحفظ والمبالغة في إسباغ صورة الكمال على الذات وعلى أفراد الأسرة[٢٨]. تصر مثلا، على إعطاء أفضل صورة عن زوجها، وتظهر تفهمها لرغباته مع أن ابنها يعاكس وجهة نظرها ويرى أنها لم تحمله مسؤولياته.[٢٩]لقد ترك الإبن بيت الأسرة باكرا، فلم يتعرف إلى تفاصيل حياتهما، فأعاد كتمانها إلى شخصيتها القوية، متسائلا " لماذا تزوجت متأخرة؟ لماذا اختارت البابا؟ لأنني أراها أكثر تحديا منه، وأقوى وأذكى."

ربما نرى في هذه الصورة المعقدة نموذجا لتربية الإناث في الربع الأول من القرن العشرين، حيث تُعّرف النساء عبر صلتهن بالذكور، كائن اجتماعي مرتبط، مطلوب منه العطاء والانمحاء ذاتيا. [٣٠] أما وجهة نظر النسويات– اللواتي يسترشدن بالتحليل النفسي–حول مكانة الآخرين عند النساء، فإنهن يبين أن الهوية الذكورية تنبني عبر الانفصال والتخلي[٣١]، بينما تتكون الهوية الأنثوية عبر التماهي والاتصال. هكذا تعرف الذات الأنثوية عن نفسها عن طريق علاقاتها بجماعتها وتعلقها بهم. هذين الوجهين، الوجه التربوي والوجه النفسي، يفسران إلى حد ما، مبالغة الأم في تخصيص مكانة كبيرة لأعضاء أسرتها في حياتها. غير أن دراسة الرسائل لا تكتفي

---

[٢٣] كلاريسا بنكولا، المصدر المذكور، ص.٢١٤.

[٢٤] يقول ابنها كميل زخريا:"كانت الوحدة العائلية قوية جدا في لبنان، ونحن كما عشنا، ورغم الحرب كنا ملتفين على بعضنا البعض. لم أفكر بتاتا أن أبتعد عن هذه الوحدة العائلية، وان انتقل إلى مكان آخر".

[٢٥] يقول الأبن:" عندما ذهب شعرنا أننا ناقصين. حين كنا نتصل به هاتفيا عبر موظف السنترال الكل يبكي. هذا كسر كل شيء. من بعدها صار أسهل على الثاني أن يترك."

[٢٦] يقول:" ولا مرة أشعرتنا أنها بحاجة إلى أي شيء أبدا!"

[٢٧] يقول:" أتذكرها دائما عائدة مساء من الشغل ومنهمكة في تحضير الأكل، وأثناءها كانت تستلم تدريس احدنا، وخالتي تتولى الآخر.

[٢٨] يقول:" ليس معقولا أن يكون كل شيء في غاية الكمال، إنها تتصرف بهذه الطريقة مع الجميع. تقوم بالواجبات وتساعد الآخرين على حل مشاكلهم، حاملة أسرار الناس، لكنها كتومة".

[٢٩] يقول:"أكيد أنها ضحت وأنها تحملت عبأ أربع شباب وزوجها لا يعمل بل يعيش مرتاحا. ذهب في السبعينات إلى اميركا، اللذين ذهبوا معه امتلكوا فيما بعد محطات. لم تِسأله لماذا عدت ولم تحاسبه. ثم سافر لاحقا إلى البحرين وعاد. كان بامكانها الضغط عليه ورفض تصرفه. بدل ذلك تركته يفعل ما يشاء."

[٣٠] Jacques Lecarme, Elianne Lecarme-Tabone, L'autobiographie, Armand Collin, Paris 1999, p.119.

[٣١] على الولد الانفصال عن أول موضوع حب له، وهو الأم، كي يصبح رجلا.

بهذين الوجهين وحديهما، إذ يوجد بعد آخر لهذه الشخصية نسميه الفكر العاطفي الذي يفتح شخصية الأم على بعدها النفسي والثقافي، ويستند إلى الإحساس بالرضى وما يصاحبه من سكون للنفس وبهجة، وإحساس الذات بعظمة دورها الذي ينتج داخلها رجة لمشاعرها في تمثلها لدورها اليومي.

١-الرسائل والفكر العاطفي

١٠١-إشكالية الرابط: هي/هو/هم.

يبني الابن حياته الجديدة خارج البلاد، والأم في مكانها الذي كان عامرا بالأولاد ثم رحلوا تباعا. مع غياب التكافؤ على المستوى العاطفي بين الأم وأولادها، فان رسائلها تحمل كل الوضعية العاطفية الافتراضية. ليس بامكاننا التغاضي عن الروابط التي تخلقها المراسلة وتحافظ عليها:الرابط العاطفي والعائلي والاجتماعي بالمعنى الواسع. يستوقفنا هذا النسيج الذي تحيكه الرسائل الذي يحتوي صورة الابن وصور الأولاد الآخرين، في الوقت نفسه، فتقدم إيحاءات عن المرسل نفسه وليس المرسل إليه فقط. لا يوجد نوع أدبي أو فني يمكنه الجمع بين الداخل وتقاسم هذا الداخل إلا الشعر.[٣٢]

تتطلب دراسة الروابط العاطفية تحديد إطار رسائل الأم الذي ينظم تجربتها ويمكننا من تبين شخصيتها والعوامل التي تتحكم في عيشها. لا نعتقد أن الفاعل الاجتماعي يمتلك كل السلطة في بناء أطر تجاربه، بل إن هذه الأطر هي حصيلة موروث اجتماعي يفرض علينا وإن جزئيا، طريقة في تأويل تجاربنا.[٣٣] إن إطار الرسائل الذي تقدم الأحداث فيه يشير إلى أهمية المعطيات التي تقدمها الأم. انه الإطار المشهدي الذي يساعد في التعريف عن الفضاء المستقر في الداخل ومنه يتخذ القول معنى. تقدم الأم في رسائلها إطارا نفسيا وزمانيا ومكانيا يشير إلى تعدد الوقائع وتشابك مستوياتها، كما يشير إلى كونه ثمرة تجاربها الحياتية اليومية، ويهدف إلى صياغة مجال حواري تشاركي بينها وبين الابن، هو الذي يعيش في عالم[٣٤] مختلف عن عالم "كفرحزير".

يمتاز الإطار النفسي بصياغته لدور الأم كمصدر المعلومات، العارف بالأخبار والمطلع عليها[٣٥]. ومصدر الحب والاطمئنان، الحضن الذي ينتظر قدوم الأولاد لرعايتهم، ومصدر الربط والتواصل بينها وبين الأبناء[٣٦]، وبين الأبناء مع بعضهم بعضا عبرها، ذلك من أجل توطيد الروابط الأخوية:" أرجو أن تتكلموا دائما مع بعض كما لو أنكم في بلد واحد". وهي مصدر الثبات على الحلم باللقاء "حلم من الأحلام" "يا ريت منصير ببلد واحد".

أما الإطار الزماني لكتابة الرسائل فإنها تحدده بعناية ودقة، الساعة والطقس والمكان، إضافة إلى تحديدها مكان الكتابة، الطاولة التي تضع عليها صورة ابنها أمامها كي تستلهم حضوره وحواره، وتستدعي مشاركته لها، في هذا الجو الرومانسي، وتحديدها المشهد الطبيعي، أشكال الطبيعة المختلفة في الفصول. إنها عناصر ترسم الجو الطبيعي والنفسي، هي طوالع باسمة تنبأ بالفيض العاطفي، وتحمّل الكلمات أكثر مما بوسعها حمله، وتفسح حيزا

---

[٣٢] Geneviève Haroche-Bouzinac, in La Faute à Rousseau, op.cit, p.56.

[٣٣] E.Goffman, in: Dictionnaire D'analyse du discours, op.cit, p.87

[٣٤] انه عاش وتنقل بين كندا واميركا وتركيا واليونان والبحرين.

[٣٥] نقصد أخبار العائلة والضيعة والأقارب والأصدقاء.

[٣٦] إنها تعلمهم بنمط عيشها وحياتها هي والأب.

بينا للغائب/الحاضر وتجعل الحوار قائما بينهما. هذا هو غذاءها الروحي: المطر، الغيم، البلبل الذي يصبحها كل يوم؛ ودافعها للحياة التفكير بابنها وصورته أمامها حيث تكتب.

لم تستسلم هذه الأم المتقاعدة لظروفها الأسرية، بل تبادر إلى الانتقال إلى مرحلة أخرى، إلى تطور جديد، هي المرأة الدينامية التي لا تتوقف عن الحركة، كما وصفتها كنتها. بدل أن تجعل الزمن الماضي محور حياتها وصورة عميقة الترسخ في ذاتها، فإنها استخدمت الحاضر كعلامة مميزة؛ الماضي مهما كان مزينا بالإنجازات لا تقف عنده. هكذا لا تتوجه رسائلها إلى ابنها من منطلق الماضي بل من منطلق الحاضر الذي لا يحيل دون تطورها من جديد. تمضي في الكتابة إلى أولادها، والعناية بتحسين البيت في الضيعة وفي المدينة، استعدادا لاستقبالهم. إن تفاؤلها بالحياة يجعل إقبالها عليها واضحا، كأنها خففت قبضتها على نموذج حياتها الماضية كي تنمو أشياء جديدة في حياتها. إنها تضع نفسها في المناسبات المغذية والمضيئة:الكتابة إلى الأولاد في انتظار استقبالهم.[٣٧]

١٠٢-استراتيجية الكتابة.[٣٨]

إن استراتيجيات الكتابة تتجه وتخدم تعزيز فرص اللقاء والتمتع بحلاوته التي لا يضاهيها شيء آخر في الحياة. لذلك فإنها تتقصد:

١-وصف اللقاء الأخير بابنها أو بأولادها الآخرين، والتوقف عند جمال اللقاء الذي لا يمكن تجاوزه.

٢-الزمن لا قيمة له إلا حين يحين موعد هذا اللقاء وذاك القرب.

٣-تمتين الروابط الأسرية والعائلية، وبالمكان/الأم خصوصا.

إن حياتها موقوفة على أوضاع أولادها وعلى حسن التواصل بينهم جميعا، وبينهم وبينها. حياة موقوفة على الشوق وموقعة باللقاء السنوي. لذلك تتوقف مليا عند وصف اللقاء وإعطاء أخبار العائلة والأصدقاء وأهل الضيعة. أما المكان الحميم، فإنها تصف هيئته الجديدة بعد الإصلاحات التي أجريت عليه من جراء الحرب، سواء بيت الضيعة(كفر حزير) أم بيت الميناء (طرابلس). وصف يركز على الجمال والراحة والمتعة والأنس والحميمية من جهة، ومن جهة أخرى، فإن كل ذلك لما أمكن حدوثه لولا مساعدة الأبناء المادية.

إن استراتيجيات الكتابة[٣٩] تخدم مسؤوليتها كأم مناط بها تمتين الروابط الأسرية والعائلية وبالمكان/الأم، ومدار هذه المسؤولية أليس المرأة القوية التي تتحدى عوائق ممارسة أمومتها وتتجاوزها، وليس ثمة فعل هروب بل حضور يتحدى الغياب القسري.

١٠٣-العواطف: تجربة عاطفية واعية ومجسدة في كلمات.

الأم حاضنة العاطفة ومثيرها:

---

[٣٧] هذا التحول في الشخصية تحدثت عنه كلاريسا بنكولا في دراستها الشيقة تحول النساء من "البقاء" إلى "الازدهار". المصدر المذكور، ص.٢٤٢.

[٣٨] نتساءل إن كان هناك رابطا بين مهنة الأم، عاملة في مركز البريد والهاتف وبين سخائها في كتابة الرسائل. فمن يتحدث عن رسائل يتحدث أيضا عن البريد وسيلة التواصل. لكن في الحرب ابتكر اللبنانيون وسائل أخرى، وسائل بشرية غير تقنية تعتمد على سفر الجيران والأقارب والأصدقاء.

[٣٩] الرسائل التي بين يدي عددها أربعون رسالة موقعة بين ١٩٩١-٢٠٠٢. على أن الأم قد كتبت إلى ابنها رسائل منذ مغادرته لبنان في العام ١٩٨٥. هذه الرسائل لم أتمكن من الإطلاع عليها بسبب صعوبة أعلنها الابن في البحث عنها! لقد وجهت إليه سؤالا حول فحواها، ومدى شبهها والرسائل الأخرى التي بين يدي والتي تمثل مرحلة ما بعد الحرب. أجاب بأن رسائل الحرب أكثر قتامة بسبب البؤس في لبنان. أما القسم الثاني من الرسائل فإنه صادر عن شخص تجاوز الحرب والقلق النفسي والحاجة المادية.

نتوقف عند العلامات اللغوية التعبيرية التي تنم عن الفهم والتذكر والتقييم. والتي ترتبط بأحداث اجتماعية مهمة للأم. هذه العلامات اللغوية ترتفع وتيرتها أو تخفت حسب قيمتها العاطفية وحسب الأحداث المرتبطة بها، لذلك تصرح عن العاطفة أو تضمنها في خطابها، وفق الشحنة العاطفية للوقائع. تحتوي رسائلها على رسالة عاطفية مبنية على مناداة عاطفة البنوة عند الابن، لكن دون وضع المناداة في إطار درامي، إذ إن دافعها الدفاع عن الرابط الأمومي، والتأقلم النفسي مع سفر الأولاد. إن الأبعاد العاطفية لخطابها تتعلق بجملة معارفها، التي تتضمن معرفتها السردية، أي كيفيات التعبير، وتمثلها لنفسها ولأولادها وانتظاراتها منهم.

إن تعيين العواطف وسماتها تبين توجها عاطفيا دقيق المعالم، ينتظم وفق محاور، تظهر المكون التقويمي للوقائع بناء على دوافع عاطفية. يتعلق هذا المكون بشخصية الأم الحنونة، وبتكوينها التربوي، وبالمسافة التي تفصلها عن ابنها وإمكانيات متابعته، وبالقواعد الاجتماعية المعيارية التي تخضع لها، فهي حاضن العاطفة ومثيرها. إن الواقعة المثيرة للعاطفة تضعها الأم ضمن سيناريو، تلتزم به بسبب بعد ابنها عنها، وتلزم به ابنها بدوره، التي تشير إلى خضوعها للنمطية العاطفية المرتبطة بجرح الأمومة من جراء هجرة الأبناء. لذلك نتوقف عند الاتصال العاطفي المقصود وغير المقصود الذي يقطع الخطاب أو يبنيه، حيث نتبين ثلاثة معلمات: الاحتفاء بالتعبير العاطفي، نقله التفخيمي، ونقله المتعمد. وتدخل جميعها ضمن الشفرة الثقافية المحددة لعواطف الأمومة التي تجعل من تداولها أمرا عمليا في التواصل.

أ-الاحتفاء بالتعبير العاطفي:

تبدي الأم شوقها إلى ابنها دون تردد، وترسل له القبل "أقبلك باشتياق"[٤٠] ، " أنا مشتاقة كثير كثير كثير"[٤١] وتعترض على البعد "شو هالحالة كل واحد بعيد عن الآخر مسافة عمر"! ثم تناديه "يا كمولة"، "شو أخبارك يا كمولتي"[٤٢]، "كيفك يا حبيب القلب"[٤٣]. وتستخدم أحيانا التعابير الشعبية التحببية المستخدمة في الشمال " أمو"(ماما) "كيفك يا امو"[٤٤]. انه التودد الذي يخلق تواصلا حقيقيا في العمق لأنه بعيد عن اللغة الرسمية، ونجد هنا صوابية رأيي صفوان من أن اللغة الشعبية تخلق ظروف المساواة بين الناس وفرص التعبير عن أنفسهم، وان الحقيقة موجودة في هذه اللغة الدارجة، وان استخدامها يبعد العلاقة عن الصراع.[٤٥] ثم تتغزل به " يا قمر صباح الخير يا أحلى البشر. صباح الخير كل ما الفجر انتشى. أنا مبسوطة لأني سمعت صوتك البارحة"[٤٦]، أو تتغزل بصورته التي تضعها أمامها حين تكتب له "ابتسامتك تبعث في نفسي الارتياح عن فراقك". ثم تنظر في آخر صورة أخذت للأولاد مع بعض في أميركا وتمتدح جمالهم.

وتبدو خفة دمها عبر إطراءاتها التي توجهها إلى ابنها، حول القبعة التي يرتديها في الصورة، وشعره الطويل، وكأنه يريد أن يبدو فنانا، لكنها تعترض بلياقة ومحبة[٤٧]، وأحيانا تقدم له نصائح كما لو انه ما زال صغيرا، فلأن

---

[٤٠] الرسالة المؤرخة في ١٤ آب ١٩٩١.
[٤١] الرسالة المؤرخة في ١٤ آب ١٩٩١.
[٤٢] الرسالة المؤرخة في ١٤ آب ١٩٩١.
[٤٣] الرسالة المؤرخة في ٢ تشرين الأول ١٩٩١.
[٤٤] الرسالة المؤرخة في ٤ تشرين الثاني ١٩٩١.
[٤٥] مصطفى صفوان، المصدر المذكور، ص ص.١٤٧-١٥٢.
[٤٦] تقول:" أما انتم الثلاثة الصليب حولكم وكأنكم أبناء ملوك كل واحد أحلى من الثاني"، الرسالة المؤرخة في ٢٦ أيار ١٩٩٤
[٤٧] تقول له:" وصورتك على المكتب عظيمة، مربي شعرك لا أحب هذا الموديل يا ماما الله يرى عليك قبل ما تروح على أميركا قص شعرك مثل الأول لأن أخوتك بدهم يضحكوا عليك...ومين قلك هيك حلو واللي بقول لك بيكون عم يضحك عليك." الرسالة المؤرخة في ١ تشرين الثاني ١٩٩٢.

الحر شديد في البحرين تسأله " عم تلبس برنيطة." ربما هو الاهتمام الذي بامكان الأم أن تبديه حين تكون على مسافة من ابنها. وتنهي كلامها الفوري وتعبيرها المؤثر تقريبا بشكل نمطي topos في جميع رسائلها.[٤٨]

ب–تفخيم التعبير العاطفي:

كان من نصيب أولادها إغداق المديح عليهم لحسن سلوكهم تجاه والديهما، حافزها في ذلك حميمي: الشكر على سلوك سخي[٤٩].على أن هذا المديح لا يقتصر على ابنها كميل الذي توجه له الرسائل، إنما يطال أخوته أيضا، فهي غالبا ما استخدمت ضمير الجمع حين توجه الكلام إليهم كأن لا تمييز بينهم. احتفظت بالأهمية لأولادها، إذ أن مساعدتهم المالية خلال فترة انخفاض قيمة الليرة اللبنانية، ضمنت رفاهية الأب والأم. وان صدف مدحها صديق ابنها، فإنها تلحقه بمديح مخصص ومميز للابن[٥٠]، كما لو أنها تطيب خاطر ابنها لأنها تجرأت ومدحت صديقه! إن الصورة الايجابية تظلل أبناءها فتستبسل في حمايتهم عن طريق هذه الهالة الايجابية التي تحيطهم بها. لا نرى قلقا بل تمسكا بحلم اللقاء " يا ريت منصير ببلد واحد"[٥١].

هذا الوعد باللقاء يقابله ذكر تلقيها مكالمات في ليلة واحدة من ولدين من أولادها، فتشرع في سرد مشاعرها " إنها ليلة كانت من العمر وقد سمعت صوتهما والحلو أنهما طمنوني عنكما." طريقتها دبلوماسية جدا ورقيقة في الوصل بين فرحتها من مهاتفة أولادها في أميركا والتوجه إليه وتذكيره بأنهم ذكروه أيضا، وبالتالي اكتملت الحلقة العاطفية والتوافق العاطفي عند الأم.

ولا يغيب عن بالها تشجيعه ليصبح " كبير المصورين في العالم".[٥٢]

وحين قرر الزواج في كندا، فإنها تغدق النصائح والوصايا عليه التي يرافقها الدعم المعنوي للأبن أمام مسؤولياته الجديدة: "إني متأكدة منك بأنك سوف تكون الزوج الصالح والمحب. اطلب منك أن تكون لزوجتك الزوج الوفي والصديق المخلص والحبيب الدائم(...) لتكن الثقة والتفاهم بينكما دائما وخصوصا الاحترام (..) اطلب منك أن تسعد زوجتك بكل قوتك". ثم تفخم بابنها وتسرد مثالبه موجهة كلامها إلى العروس:"إن كميل قليل من أمثاله بأخلاقه."[٥٣] وتؤطر المديح والتشجيع والتفخيم بالرضى الإلهي لحراستهما، فتغتني نصائحها بمقدار من الورع[٥٤]. يخيم على هذا المشهد جو وفاقي يخلو من التناقض والالتباس والقلق، يحول وجهة الغياب ويقلبه إلى حضور، يشكل سندا داعما لخطوات الابن الجديدة، يحصنه ويجهد في إبقائه على سيادته لنفسه وفق معايير الحب والإخلاص.

ج–نقل التعبير العاطفي المتعمد:

---

[٤٨]تنهي رسائلها على الشكل التالي :" وأخيرا أضمك إلى قلبي وأقبلك ألوف القبلات سائلة الله أن يعطيك الصحة والنجاح والتوفيق بكل أعمالك. والرب يرضى عليك. أصلي دائما من أجلك. امك المشتاقة دوما. أليس". الرسالة المؤرخة في ٢ تشرين الأول ١٩٩١.

[٤٩] مثل إرسال بعض المال والقماش لخياطة فساتين وإرسال صورهم وصور عائلتهم،الخ.

[٥٠]تصف صديق ابنها بأنه "شاب لطيف وكبار الهيئة" لكنها سرعان ما تعود إلى مدح ابنها " ولكن أنت ما في أحسن منك". الرسالة المؤرخة في ٢٦ أيار ١٩٩٤.

[٥١] تضيف قائلة له:" يا كميل إني أعد الأيام والساعات لوقت لقاءك. وأتمنى ان تمشي هذه الأيام بسرعة لأنعم برؤيتك الحبيبة لأني مشتاقة أن أضمك إلى قلبي بعد طول هذا الوقت الله يقرب أيام اللقاء." الرسالة المؤرخة في ٤ تشرين الثاني ١٩٩١.

[٥٢] الرسالة المؤرخة في ٢٦ آب ١٩٩٦.

[٥٣] الرسالة المؤرخة في ٤ كانون الأول ١٩٩٥.

[٥٤] الرسالة المؤرخة في ١٥ كانون الأول ١٩٩٥.

تتعمد الأم التركيز عاطفيا على نقاط رئيسية، تظهر طبائعها في السرد بين إظهار غزارة الشوق والاهتمام والامتنان والإخبار الذي يضج بحضور الأولاد أو الاستعداد لحضورهم. وهي في كل ذلك تتوجه إلى ابنها في الحاضر كشخص ناضج ومسؤول ولا تعود إلى طفولته. يدفعنا ذلك إلى الإقرار بقوة شخصيتها في اتزانها حيث تحتفظ لنفسها بمكانة وتفسح بدورها محلا لمكانة الابن بموازاتها.

تستدعي عاطفة الابن لمشاركتها عاطفتها تجاهه، حاثة إياه على الكتابة إليها وعلى إرسال صور له، فتقول له:" أذوب شوقا لمعرفة أخبارك حرفيا".[٥٥] وتضيف " كاتبنا دائما يا كميل لان الكتابة نصف مشاهدة كما تعلم".[٥٦]وبعد زواجه يصير طلب الكتابة من العروسين معا،[٥٧] " طمنوني عنكم دائما لأني افرح بأخباركم كلكم".[٥٨] وتستدعي عاطفته بطريقة أخرى حين تركز في العديد من رسائلها على حب مشترك بينها وبين ابنها، ألا وهو حب فصل الشتاء والطقس الغائم والممطر، تقول "أنت وأنا منحب هذا الطقس وبيتعجب العالم على هذا الذوق. قولك لي منحب هالطقس! لأن نفسنا تميل إلى الرزانة والرصانة. هل لا زلت كذلك؟". وتستدعي عاطفته لتلبية رغبتها في زواجه هو وأخوته "استحو" "صرنا ختيارية" فتذكره بأنها كبرت في العمر وتريد أن ترى أحفادها. وتستدعي إضافة إلى بنوّته، أخّوته فتذكر أولادها جميعا وفي كل رسالة. فالحديث الافرادي مع ابنها سرعان ما يمتد ليطال بقية الإخوة، في حركة مدروسة لتوطيد الصلاة العاطفية بينهم. وتسبغ هذا الذكر بالصفات الايجابية "أولاد صالحين". وإذا كان الأولاد صالحين فان غيابهم بعد اللقاء لا بد أن يحدث فجوة عاطفية لدى الأم " بسام ترك فراغا هائلا في البيت".[٥٩] ، وعن كميل تقول " لما رجعنا إلى البيت كان البيت بشع بخلاف لما كنت فيه مملؤ بالفرح والسعادة"[٦٠]، "دائما عم أتذكر أيام أميركا لقد كانت هذه الأيام من أجمل أيام سفرتي. لأنني تمتعت بوجودكم انتم الأربعة".[٦١] ومع هذا الغياب تفرغ عاطفتها في السؤال عن أحوال ابنها وتوجيهه للاهتمام بمستقبله.[٦٢]

ثم تقوم بوقفات وصفية تعنى بوصف البيت بعد ترميمه، مرتبطة بزمنها العاطفي. فتعرض وتقدم الوقائع من عين أم تحيل التحسينات من جهة إلى فضل أولادها، وتغري الأولاد من جهة اخرى للمجيء إلى البيت والاستمتاع بهذه التحسينات، تقول" اليوم البيت صار جديد وكأنه عمار السنة"[٦٣]، و" طرشنا البيت ابيض والشبابيك دهانها بني وطالع كثير حلو(..) الحمامات صارت كلها فرنجي(..) عايشين من جديد بفضل الله وفضلكم يا أحباء قلبي"، "البيت صار عظيما".[٦٤] وتنهي وصف هذا الخير بالدعوات لهم.[٦٥]

---

[٥٥] الرسالة المؤرخة في ٢ تشرين الأول ١٩٩١.
[٥٦]الرسالة المؤرخة في ٢٦ كانون الأول ١٩٩٦.
[٥٧] الرسالة المؤرخة في ٢٣ كانون الثاني ١٩٩٦.
[٥٨] الرسالة المؤرخة في ٢٦ آب ١٩٩٦.
[٥٩] الرسالة المؤرخة في ٤ تشرين الثاني ١٩٩١.
[٦٠] الرسالة المؤرخة في ٢١ كانون الثاني ١٩٩٢.
[٦١] الرسالة المؤرخة في ١٤ آب ١٩٩١.
[٦٢] الرسالة المؤرخة في ٤ تشرين الثاني ١٩٩١.
[٦٣] الرسالة المؤرخة في ١٤ آب ١٩٩١.
[٦٤] الرسالة المؤرخة في ١٧ تشرين الأول ١٩٩١.
[٦٥] الرسالة مؤرخة في ٤ تشرين الثاني ١٩٩١.

نستطيع أن نميز إذا بين ثلاث مساقات مترابطة تفضي إلى بعضها البعض، في سياق عاطفي تلتقي فيه الأم/الذات بهدفها، فنرى جليا ترابط الذات والهدف. على أن الأم تلعب على حدي العاطفة والعقل بتوازن شديد دون أن تخل باحديهما، حيث تخضع المشاعر لنسق من الأسباب المتينة. ويؤشر إظهار عواطفها، على معارفها الإيمانية والاعتقادية،[٦٦] المبنية على القيم الاجتماعية، وإظهار العواطف مقصود لضبط حركة الأبناء المنتشرين في العالم، وضبط إيقاع ارتباطهم العاطفي بالبنوة والأخوة. لذلك فان قوة عواطف الأم وزخمها، لا تولد القلق أو الإحساس بالذنب عند الابن، بل على العكس تماما إنها تستثير المواقف الايجابية من قبلها و قبله. سعيدة بإنجازات أولادها تستحثهم على المثابرة والمتابعة، رغم ندائها الموجه إليهم ليأتوا إلى زيارتها. من وجهة نظرنا، إن هذا الميزان العاطفي الذي تمسكه الأم والذي يحقق ذاتها يعود إلى شخصيتها القوية والمستقلة، كما وصفها ابنها، والى علاقتها الجيدة بزوجها، كما بدا في رسائلها. ذلك يناقض بعض الاطروحات حول علاقة الأم بابنها، التي تفيد بان قوة إحساس الأم بتخلي ابنها عنها وبعدم حاجته إليها، تتجلى بإحساس الابن بالذنب.[٦٧]

وهذا الميزان بين العقل والعاطفة يتجلى حين تحرص على إظهار خوفها على صورة الواحد منهم تجاه الآخر، فإذا أهدى احد الأولاد، على سبيل المثال، فردا من أفراد العائلة بمناسبة خاصة، فإنها تطلب من أبنائها الآخرين المبادرة للقيام بالتصرف نفسه، حتى أنها تخبره عن المبلغ المدفوع للهدية. فهي تبحث على دوام المساواة بينهم. كما تحرص على إحقاق حقوق أولادها المادية، إذ تخبر ابنها كميل في أحد رسائلها، أنها ووالده كانا السبب في خسارة احد ابنائهما مبلغا من المال، وضعه في حوزتهما في البنك، فارتأيا تغيير العملة من الدولار إلى الليرة من أجل الفائدة، وحين ارتفع الدولار وتدنت قيمة الليرة، خسر الابن مبلغا كبيرا. إلا أنها وزوجها بادرا إلى إصلاح الأمر عن طريق بيع أرض.

إن علاقتها العاطفية بأولادها لا تحدها المادة، لأنها امرأة عاملة وزوجها ملاك وقد علمهم في أفضل المدارس والجامعات. وهي تبدو امرأة ذكية عاطفيا وشاطرة عمليا، فخلال الحرب عرضت الدولة على موظفيها إنهاء خدماتهم واخذ تعويضاتهم. فعلت ذلك لكن بعد سنوات تبين لها أن المبلغ الذي أخذته كان قليلا، ثم عادت الدولة وسمحت لموظفيها بإعادة دفع ما سحبوه من تعويض لأخذ معاش تقاعدي، فبادرت إلى تغيير وضعها. وحين يدعوها ابنها إلى البحرين فإنها تتردد إذ تفكر بتوفير التكلفة عليه. إن علاقتها بأولادها طابعها السؤال الحنون عنهم، فهي لا تتردد في المناسبات العائلية بإهدائهم هدايا سخية. لقد اكتسبت المعرفة المفصلية بالنفس وبالآخر، ذلك قوى قدرتها على تتبع المراحل وعهود الحضانة والتحولات، وهي في منتهى التسامح. فالآمال التي تضعها في أبنائها لا تفرضها عليهم لدرجة شلل حياتهم أو إعاقتهم، بل على العكس من ذلك تماما، إذ كل أولادها ناجحون مهنيا. وعندما نحاول أن نفهم هذه الشخصية فإننا نجد أنها ليست محبطة في حياتها، ولا تسعى إلا لسعادة أولادها، لان سعادتها من سعادتهم كما تقول. لا بد أنها امرأة راضية إلى حد بعيد عن مسارها الذاتي الذي آلت إليه.

---

[٦٦] P. Charaudeau, in: Dictionnaire D'analyse du discours, op.cit p. 219.

[٦٧] Carol Klein, Mères et fils, Robert Laffont, Paris 1988, p.88.

وتختم هذا المسار العاطفي بإقفالها الحلقة على هبة عاطفية بقولها "حرمت من البنات ولكن أولادي كانوا يتمتعون بعاطفة البنت وحنوها". هكذا حققت الأم أهدافها في إرساء علاقات عاطفية متوازنة مع أبنائها، محققة بذلك توازن أبناءها العاطفي بعيدا عن التسلط. غير إننا نتساءل ألا يمكن لسلطتها أن تتوارى وراء هذا التوازن؟

٢-سلطة الأم برمجة مستترة:

يقال أن الشخص حين لا يشعر بقوته رجلا كان أم امرأة، فانه يميل إلى البحث عن سلطة في دور يتطلب النفوذ، وان غالبية النساء في المجتمع التقليدي وجدت ضالتها في الأمومة. فالأم في انقطاعها عن مجالات التأثير يمكنها أن ترضي توقها إلى النفوذ في علاقاتها بأولادها، حيث تكسب نفسها صورة لها، تعاكس صورة الضعف في المجال العام، فتفرض حضورها بقوة.[٦٨]ألم يؤكد فرويد أن علاقة الأم بابنها وحدها بامكانها أن تحمل إلى الأم رضى دون حدود؟ لكن أريك فروم رفض ذلك واعتبرها دليلا على شوفينية فرويد الذكورية، إذ إن كتابات فرويد لا تتصور مجتمعا الرجال والنساء يحظين بفرص ممارسة السلطة في المجال العام وتحقيق ذواتهن فيه. فهل يصح هذا الموقف على أليس؟

أليس امرأة قوية كما وصفها ابنها[٦٩] وكما ظهرت لنا في الرسائل، تلعب أدوارا ثلاث في مراسلتها لابنها تشير إلى قوتها: بناء عالم صغير حميم، الأرشفة وقنال التوصيل وتثبيت سلسلة المراجع.

أولا-بناء عالم صغير حميم micro-univers يخصها ويخص ابنها، عالم رحمي دافىء، يعنى بتقديم بناء سردي لواقعة من حياتها اليومية بغية توصيلها إليه بعفوية واسترسال، يسعف الأم في تواصلها مع ابنها، ويطمئن الابن حين يطلع على هذا العالم الصغير الحميم الذي يخصه. كي تصل الأم إلى غايتها في التواصل الحميم يسعفها هذا النموذج -العالم الصغير الحميم- دون أن يحمل متطلبات صارمة، لكنه قادر على حصولها على النتيجة المرتجاة من الابن وهي التواصل فيما يتعلق بالمعيش، مع الاكتفاء بتسجيل خواصه المهمة التي تتوافق مع تمثلات الأم وابنها حول الأمومة والبنوة[٧٠]. فباب هذا العالم ينفتح وينغلق بمفتاحين: مفتاح الأم ومفتاح ابنها رغم استناده إلى مرجعية ثقافية/اجتماعية.

ثانيا-تقوم بالأرشفة لأسرتها، بمعنى أنها تزود أولادها بأخبار بعضهم البعض حتى وان كانوا على اتصال مباشر فيما بينهم. تزود ابنها بأخبار الضيعة والأقارب والأحوال المعيشية والبنية التحتية في البلد، التي تعيق أحيانا وتيرة تراسلها مع ابنها. وتزوده أحيانا بمواقف الأب من بعض القضايا العائلية، مثل مشروع زواج أخيه من شابة يرفضها الأب، ذلك كي يتدخل لصالح أخيه. فهي مركز السجل الأسري وقناة التوصيل بهدف الإبلاغ والاتصال والتفاعل بين الأولاد وأمهم وأبيهم، وبين الأولاد مع بعضهم البعض، بين الأولاد وزوجاتهم والعائلة والأصدقاء، لإرساء قواعد عائلية ثابتة البنيان.

---

[٦٨] Carol Klein, op.cit, pp 94-110

[٦٩] يؤكد ابنها في المقابلة، أنها عانت مؤخرا من مرض السرطان في الغدد وخضعت لعمليات وعلاجات في أميركا منذ العام ١٩٨٧ ولغاية اليوم. إلا أنها لا تشكو. وهي تتنقل بين أميركا والضيعة حيث تمضي الصيف فيها "هي قوية جدا".

[٧٠] إنها ترسم هذا العالم الصغير الحميم وفق معارفها وقيمها وأهدافها.

ثالثا– تمثل الأم المرجعية المكانية (البيت/الأم) والأخلاقية والدينية[٧١]. فهي المذكر بضرورة العودة إلى المكان/الأم الملاذ الآمن الذي يذوي بدونهم، والمؤكدة على قيم أبنائها الأخلاقية. تذكّرهم بجميع المناسبات الدينية وتشرح بعضها، وتقدم القرابين عنهم وتهبهم القداديس وترسل إليهم محفوظات مقدسة لحمايتهم، لكي يبقوا ضمن الإطار الإيماني وفقا لديانتها ومعتقداتها الاجتماعية. فإيمانها الديني مرتبط بالعاطفة طالما انه مسخر لحماية الأولاد وعائلاتهم وللصلوات والدعوات من أجل صحتهم وحظوظهم الجيدة في الحياة. إن الطقوس هي إحدى الطرق التي يضع بها البشر حياتهم في مشهد منظوري[٧٢]، فالطقوس تستدعي المخاوف والقلق وتدعها للرقاد، وتستدعي الأماني وتدعها تحيا في النفس. إنها أم روحية ودنيوية تغذي نفوس وأرواح أولادها. في النهاية ماذا تبقى للابن من رسائلها بعد قراءتها؟ إنها العاطفة.

إن تأديتها لهذه الأدوار الثلاثة التي نعتبرها مفتاحا هاما في العلاقات الأسرية، تجعلنا نؤكد أنها تمثل الأم التي تمتلك قوة معتدلة ونافعة[٧٣]، إذ تظهر قوة كافية لان تكون نفسها، وتعبر عنها، وتبين براحة وثقة انتماءاتها، وتفي بمطلب الأمانة حيال الذات. حينئذ فانه باستطاعتها التأثير في محيطها العائلي، و التأثير الفاعل في وعي أبناءها الثقافي. إذا كان حقا كل إنسان يحمل في ذاته الشرط الإنساني، فذلك يعني أن كل مسار فردي هو باب الدخول إلى فهم الآخرين أيضا. نستنتج أنها تمثل ذاتا عارفة، ومتدخلة في مجرى الأحداث، تتحرك في ميدان العائلة موجهة إياها نحو منطق الأمومة، ومنطق العلاقات العائلية، مشكلة سندا مرجعيا لأولاد يعيشون في الغرب حيث "ما حدا لحدا" كما تقول. إنها تقيم التوازن في إرجاعهم إلى التقاليد العائلية والدينية. الحدود وهمية إلى حد ما، طالما أن العالم الصغير الحميم الذي تبنيه لها ولابنها يملك مفتاحين هما ملكيهما معا.

٣–هي وزوجها:

إن قارىء رسائلها ينتابه الفضول لمعرفة علاقة أليس المرأة القوية المسؤولة المؤمنة، بزوجها. إن رسائلها إلى ابنها، هي المولجة بكتابتها وإعطاء الأخبار عنهما[٧٤]، لان الأب لا يحب الكتابة، وبما أنها تسرد الوقائع عنها وعنه، فان موقعه في رسائلها محصور في:إرسال سلامه وقبلاته إلى ابنه وتمنياته له بالتوفيق والنجاح.[٧٥] وتشير أحيانا إلى ضجره من الضيعة، هو المتعلق في السكن فيها.

إلا أنها تكتب صراحة باسمها واسم زوجها فريد في المناسبات العائلية المهمة، مثل زواج ابنها كميل، وتضع اسمه في الأول مع أن الرسالة مكتوبة بصيغة المتكلم، لكنها تضيف في الخاتمة قبل التوقيع" أبوك بخير والحمد

---

[٧١] يقول ابنها أن إيمانها الديني عميق جدا فهي إلى الآن في فلوريدا حيث تمضي الشتاء عند أخي بسبب علاجها فإنها لا تسأل أين هي الكنيسة، بل ما هي أقرب طريق للوصول إليها. تقول " اعشق الصلاة والكنيسة".

[٧٢] كلاريسا بنكولا، المصدر المذكور،ص.٢٤٢.

[٧٣] يؤكد ابنها كميل زخريا أن صلابتها تظهر في الأوقات الصعبة " في العادة إذا حكها الواحد قليلا فإنها تبكي، على أشياء بسيطة. لكن حين ماتت أختها لم تبك، وحين مات أبي بكت قليلا ثم من بعدها بدت قوية. كانت أقوى مني. أنا حين توفي أبي وفي الكنيسة وفي الدفن أتى على ذهني صورتين محزنتين: صورة طفلي الصغير وهو في بدايات مشيه وكان والدي ينوي الحضور إلى البحرين لرؤيته، وصورة اخرى تعود إلى سنة حين كان ابني البكر ينام هانئا على حضنه".

[٧٤] في الرسالة المؤرخة في ٢٦ آب ١٩٩٦ تقول لابنها وكنتها في معرض تذكرها مواضيع للحديث عنها:" شو بدي خبركم عنا."

[٧٥] الرسالة المؤرخة في ١٥ كانون الأول ١٩٩٥.

الله ويقبلكما ويهنئكما".[٧٦]كما أنها في مناسبة المعايدة بالسنة الجديدة توقع الرسالة باسم زوجها واسمها،[٧٧] وكذلك حين حظي الابن بوليده البكر.[٧٨]وحين ترسل هدايا بمناسبة المولود الجديد مع أحد المسافرين.[٧٩]ثم يرسلان لاحقا هدية أخرى تؤكد لحفيدها أن الهدية من جده.[٨٠] نلاحظ في هذا الصدد لياقتها في عدم ذكر قيمة الهدية المالية المرسلة إليه، تعلق فقط من أن القطعة النقدية " جديدة" و"أبوك يحب الجديد". أحيانا وفيما يخص إعطاء تفاصيل حول بعض الوقائع، فإنها تستخدم ضمير الجمع، لتؤكد أن ما تسرده هي والوالد معنيين به[٨١]، أو في مناسبة عيد ميلاد أحد الأولاد فإنهما يتصلان معا به للتهنئة.[٨٢]

مرة واحدة ذكرت خلافه مع أحد أولاده حول الشابة التي اختارها للزواج فعلقت قائلة:" "الله ينجينا من أبيك ما عم يعجبه عجب وما عم يشوف تشجيع بسام منه وأنا الله يساعدني بين أتنين عقلهم(دك) يا ريت في حدا منكم معي لكي نقطّع عالقصة. لأنه أنا رايده أن اخطب له هذه الفتاة قبل سفرنا. والله وكيلك ما فيني احكي مع أبيك بيطلع علي متل الصاروخ. انه يحب هذه الفتاة ومتفاهمين."[٨٣] انه موقف مميز من الأم التي تريد زواج ابنها ممن أحب واختار عكس الأب.[٨٤]يعلق الابن:"أبي دائما هذا موقفه حتى معي. رفض من أحببت واخترت بينما هي وافقت، كانت تساندنا جدا[٨٥]. البابا يعترض على زواج ابنه من غريبة".[٨٦]

جل ما نستنتجه أن الزوج/الأب كان حاضرا في الرسائل بأوجه شتى، غلب عليها حضوره العاطفي السعيد بأولاده والكريم حيالهم، مع تحفظه المبدئي على خيارات أبنائه الزوجية، ومع تراجعه لاحقا طالما أن الأبناء حققوا إرادتهم. قدمته أليس باحترام وتحفظ ولم تأت بتاتا على ذكر سير خلافية فيما بينها وبينه، إنما أتت على ذكر واقعة واحدة كان موضوع الخلاف فيها مشروع زواج الابن. فهل كانت راضية عن عيشها برفقته؟ أم لان أولادها ذكورا لا تسترسل في الأحاديث الذاتية التي تكشف الأسرار؟

من مقابلة الابن ورؤية صور العائلة، يتبين لنا أن الأب في الشكل أجمل ووضعه المالي أفضل. كان ملاك أراضي زيتون في الضيعة ووجيه من وجهائها، يعيش من أرضه[٨٧]،

لم يكمل تعليمه، إلا انه علم أولاده في أفضل المدارس والجامعات في الخارج، ولم يتخذ مهنة ثابتة، أنيق يحب "الجخ"[٨٨]، كان متعلقا بضيعته وأسرته لذلك رفض العمل في الخارج. أعاد الابن الامر إلى دلال أمه له[٨٩]. كيف

---

[٧٦] الرسالة المؤرخة في ٤ كانون الأول ١٩٩٥.
[٧٧] الرسالة المؤرخة في ٩ كانون الأول ١٩٩٧.
[٧٨] الرسالة المؤرخة في ٣ آب ١٩٩٨.
[٧٩] الرسالة المؤرخة في ١ أيلول ١٩٩٨.
[٨٠] الرسالة المؤرخة في ٢ شباط ١٩٩٩.
[٨١] تقول:" لقد امضينا يا كميل ليلة العيد في البيت-تقصد عيد الميلاد- أما ليلة رأس السنة فسهرنا على tv". الرسالة المؤرخة في ٥ كانون الثاني ١٩٩٦.
[٨٢] الرسالة المؤرخة في ٩ نيسان ١٩٩٦.
[٨٣] الرسالة المؤرخة في ٩ حزيران ١٩٩٤.
[٨٤] يبدو أن الابن عاد وتزوج ممن أحب.
[٨٥] في هذا الخصوص تذكر في الرسالة المؤرخة في ٢٦ أيار ١٩٩٤" وأنا كل ما تكلمت معه بها لموضوع منتخانق ما بيسمع لي كلمة.(..) الله يساعدني على الاثنين إني كبش المحرقة بينهم. ما تنسى أن تقول له ما قلته لك."
[٨٦] في الرسالة المؤرخة في ١٥ كانون الأول ١٩٩٥ تذكر الأم" كما أن أباك يا كميل يبارك زواجك ويطلب لك السعادة والتوفيق."
[٨٧] هذا لا يعني انه كان غنيا خاصة مع تدهور الأوضاع الاقتصادية في لبنان من جراء الحرب، إذ تشير الأم صراحة إلى هذا الموضوع حين تقيم العروس التي اختارها ابنها فتقول في رسالتها المؤرخة في ٢٦ أيار ١٩٩٤ " إنها ليست بطاله متعلمة والجمال وسط وأنها فقيرة مثلنا".
[٨٨] يقول عن أبيه:" حين كنا في الجامعات صار يبيع أراضي الزيتون من اجل تعليمنا دون أنانية. لكن أستنتج انه كان أنانيا يحب نفسه وأن يبدو أنيقا، حذائه لامع دائما ويحمل السبحة. انه لا يحب أن يتعب نفسه، حتى انه كاد يبيع أرض البيت، فعرف الأهل وساعدوه."
[٨٩] يقول الأبن:"لم تضغط عليه مطلقا. هي دالعته هكذا أرى اليوم لكن آنذاك كنت أرى في ذلك ضعفها تجاهه. إني الآن أغلط أبي الله يرحمه تسنت له فرص كثيرة لكنه لم يأخذها. لأن أمي جيدة وهو لديه ما يكفيه من المال، في الوقت الذي كان متاحا له أن يكبر." توفي الأب في ٦ تموز ٢٠٠١.

يفسر إذا إعطاء الأم صورة ايجابية عن الوالد؟ أجاب "هي مثالية. قلت لها أن ابني اليكس يشبه أبي صعب وعنيد. فأجابت:إنشاء الله يجد زوجة مثلي!" يشير هذا الموقف إلى عمق وعي الأم بشخصية الأب وسلوكه، وقدرتها على التعامل مع هذه الشخصية النزقة والمدللة التي تتحلى بالهيبة. لم تطلق عليه أحكاما معيارية كما فعل الابن، بل تعاملت معه من موقف عملاني يتيح للأب وكذلك للأولاد اختيار نوع الحياة التي يفضلونها. وزوجها على العكس منها، غير متدين لا يذهب إلى الكنيسة. والحال كذلك ألا يشير هذا الموقف إلى قدراتها الفذة في إتاحة الفرص أمام أفراد أسرتها لتحقيق ذواتهم كما يرغبون؟[٩٠]

على أن الابن ختم حديثه عن أبيه بتذكره حادثة مؤثرة، حين كان الأب على فراش الموت، فإن آخر شيء فعله إمساكه يد زوجته والنظر إليها بحنان بالغ، وهو لا يستطع الكلام، كأنما يبدي شكره لها وجليل امتنانه. يفسر كميل هذه الحركة بأن أبيه قام بعمل جيد في إرساله هذه الرسالة إلى أمي، إذ ليس من عاداته الشكر والامتنان، هو المدلل. في لحظة الموت عادت ذاته إلى ذاتها، بينما ذات الزوجة لم تغادرها. لقد قابلت قوة الأب المالية والجمالية بقوة ذكائها وحنكتها في إدارته وإدارة العائلة. إنها مركز استقرار العائلة والبيت الذي لا يرتحل.

٤-هي وكناتها:

تدور علاقتها بكناتها على محاور ثلاث:

المحور الأول-التودد إليهن.

يظهر التودد في توجيهها الرسائل إلى ابنها وزوجته" ولديّ الحبيبين كميل وسلاف"، وفي الصلاة والدعاء لهما بالتوفيق، وإنهاء الرسائل بالتوجه إليهما سويا "يا حبيبي يا كميل ويا سلاف أقبلكما مع أبيك".[٩١] أو إغداق بركاتها عليهما " اطلب من الله أن يكلل حياتكما بالحب والسعادة والصحة." والتفرد بمديح الكنة "مبروك يا سلاف على قبول الهجرة انك تستأهلين كل خير."[٩٢] أو عن طريق إرسالها هدية لها " سوف أرسل عقد وحلق ذهب إلى سلاف تذكار مني "[٩٣].

المحور الثاني-إعطاء قيمة ذاتية لكل واحد منهن وكذلك قيمة عائلية/اجتماعية. تمتدح أخلاق وأصول سلاف التي تعود إلى تحدرها " من عائلة محترمة ومن أم قليل من أمثالها"[٩٤]، "أنها امرأة فاضلة."[٩٥] تمتدح زوجة بسام من أنها "عاقلة وذكية وبتفهم". ثم تمتدح الكلمة التي ألقتها كنتها ماريان في مأتم أبيها.[٩٦]وكذلك تطري على تصرف جيهان زوجة ابنها البكر في أميركا لحسن معاملتها لها ولزوجها.[٩٧] لا تمنع هذه المدائح زلات لسان

---

[٩٠] ذكر الابن وقائع تحدث في بيتهم في الضيعة تشير إلى مدى استيعابها لعادات سكان الضيعة وتكيفها مع هذه البيئة هي ابنة المدينة" يأتي الناس أحيانا لزيارتها في الساعة السادسة ونصف. انصحها بان لا تستقبلهم. لكنها ترفض وتريد إرغامي على السلام عليهم. إنها تتقبل أشياء على حساب حريتها." طبعا هناك فروقات بين الأجيال ، لا سيما الفروقات الثقافية التي تعود إلى هجرة الابن وإقامته في الغرب.

[٩١] الرسائل المؤرخة في ١٥ كانون الأول ١٩٩٥ و٢٩ أيلول ١٩٩٥.

[٩٢] الرسالة المؤرخة في ٩ نيسان ١٩٩٦.

[٩٣] الرسالة المؤرخة في ٢٦ آب ١٩٩٦.

[٩٤] الرسالة المؤرخة في ٤ كانون الأول ١٩٩٥.

[٩٥] الرسالة المؤرخة في ٥ كانون الثاني ١٩٩٦.

[٩٦] الرسالة المؤرخة في ١٣ أيار ١٩٩٦.

[٩٧] تقول:" إني لا أنسى ولا بد أن أذكر جهان زوجة جورج الحبيبة التي كانت لي بمثابة ابنة. وذلك عندما كان المرحوم والدكم يتلقى العلاج عندها. لم تتأفف يوما بل كانت تعامله كأب لها (..) إن زوجة جورج والطفلة ايليسا كانا لي خير عزاء بعد أن خسرت رفيق عمري. كانت تلاطفني وتحترمني جدا." الرسالة الوصية المؤرخة في ١ أيار ٢٠٠٢.

تشير إلى أنها تتعاطى مع كنتها كما لو أنها قاصرة، ذلك يتناقض ومواقفها المثالية وذكائها المعهود "يا سلاف كيفك وكيف هالجامعة معك. هل أم كامل عندكم–أمها–؟ أتمنى أن ترسل لي مكتوب مع روز تشرح لي عن دروسك وشغلك. التلفون ما بفش الخلق".[٩٨]إنها تبحث عن تفاصيل حياتهما اليومية.

المحور الثالث–وصايا لهن لصالح أبنائها. فقبيل عرس كميل توجه إليه بعض الوصايا التي ذكرناها وترفقها بوصايا أخرى تتعلق بالكنة تتخذ طابعا وعظيا "يا ابنتي وحبيبتي سلاف. اطلب منك أن تظلي حبيبة العمر لكميل وبقدر ما أنت تسعديه بقدر ما أنا أعبدك (..) إني متأكدة بان تكوني له الزوجة المثالية بكل ما في الكلمة من معنى."[٩٩]وفي موقع آخر " بقدر ما تحبينه سوف أحبك".[١٠٠] ترى هل تتصور الأم التي تنجب ذكور أنهم المحور، أم تلك مسالة تتعلق بجيل أليس ووعيه الثقافي؟ على أنها تتدارك الموقف قائلة " يا سلاف كيفك يا حبيبتي هل أنت راضية على كميل؟"[١٠١] "انتبها لبعضكما وبالغربة ما حدا لحدا."[١٠٢] وأخيرا تعطي نصائح تدل على السذاجة التي تتناقض وذكائها المعهود. ربما الفرحة بقدوم الحفيد قد غلبت على تعقلها[١٠٣]،ثم تردف هذا الموقف بما يدل على بهجتها بالمولود " إن كل الضيعة تأتي لتبارك لنا بالطفل وأنا عاملة ضيافة لائقة على شرف ولي العهد".[١٠٤] وحين سألت كميل هل قرأت زوجتك الرسائل الموجهة لك ولها ؟أجاب بالنفي، معيدا الامر إلى شخصية زوجته المتمسكة بالخصوصية "هي تحب الاما لكن تجدها ميالة للمبالغة."

كي نفهم بعمق علاقتها بزوجها وأولادها وكناتها علينا إخراج الأم من إطار المثالية التي يحلو لها وضع نفسها فيها، ومن إطار قوة الشخصية المتمرسة بالذكاء العاطفي والعقل العملي والتي ترتكب بعض الهفوات، ونضعها في إطار آخر رسالة كتبتها إلى ابنها وهي رسالة وصية[١٠٥] موجهة إلى أولادها الأربعة[١٠٦]، كتبتها بعد عام على وفاة زوجها.[١٠٧] حيث نرى إلى الأمومة كرمز إلى سيكولوجية المجتمع وذاكرته وعاطفته وحاجاته الدنيوية. إنها تقيم الميزان بينها وبين زوجها حين تموضع الرزق الذي حصلاه في حياتهما في أولادهما[١٠٨]. ثم تقيم الميزان بين أولادها وزوجاتهم[١٠٩] وتوصي الأبناء بالتكاتف وتوصي الكنات بالتعاضد، ثم تعود إلى توصيه أبنائها

---

[٩٨] إنها الرسالة الوحيدة غير المؤرخة لكنها من سياق الأحداث تدل إلى أنها تقع في العام ١٩٩٧.

[٩٩] الرسالة المؤرخة في ٤ كانون الأول ١٩٩٥.

[١٠٠] الرسالة المؤرخة في ٢٩ أيلول ١٩٩٥.

[١٠١] الرسالة المؤرخة في ٥ كانون الثاني ١٩٩٦.

[١٠٢] الرسالة المؤرخة في ٢٣ كانون الثاني ١٩٩٦.

[١٠٣] تقول لكنتها:" انتبهي إلى صحتك والى حليبك اشربي من الحليب كثيرا. عن الرضاعة هي أحسن شيء للطفل تبعد عنه الأمراض وكل شيء مؤذي. أر تعلمي ما يقوله المثل (هيدا شبعان حليب أمو) يعني قوي الجسد والعقل والتفكير".الرسالة المؤرخة في ٣ آب ١٩٩٨.

[١٠٤] الرسالة المؤرخة في ٣ آب ١٩٩٨.

[١٠٥] إنها وصايا معنوية وأخلاقية، فدرب الأم مرسوم بخطى الانجيل: المسار، الحياة، الحقيقة.

[١٠٦] الرسالة مؤرخة في ١ أيار ٢٠٠٢ وتطلب من ابنها "اقرأ هذه الرسالة واحتفظ بها إذا أردت". هذه أول مرة وآخر مرة تطلب منه هذا الطلب.

[١٠٧] تحدد في وصيتها تاريخ وفاة الزوج "يوم الجمعة ٦ تموز الساعة الخامسة مساء ٢٠٠١ لكي تذكروه في صلواتكم وتقدموا عن نفسه القرابين إذا استطعتم."

[١٠٨] تقول:"لقد كافئنا الله أنا وأباكم بأولاد صالحين محبين مطيعين، يتمتعون بصيت حسن. كما لو أن الرب يقول لنا خذا ثمن أتعابكما من هذه الحياة. وهي لا تقدر بمال الدنيا (..) إن أباكم كان يقول مرارا أنا أغنى رجل في العالم لأن الله رزقني الأولاد الصالحين. لقد كان أبوكم أبا صالحا وزوجا مخلصا". الرسالة نفسها.

[١٠٩] أشكر الله على أن لكم زوجات صالحات. إن بالي مرتاح لهذا الأمر(المرأة الفاضلة أين تجدها؟) لقد رأيتها بكنّ يا بناتي. حافظن على أزواجكن. ليس لأنهم أولادي. ولكن ينطبق المثل أيضا على الأزواج (الرجل الفاضل أين نجده؟) (..) لقد حرمت من البنات. ولكن أولادي كانوا يتمتعون بعاطفة البنت وحنوها. ولكن الله رزقني ببنات مربيات التربية الصالحة منحدرات من أمهات صالحات فاضلات عرفتهن من بناتهن". الرسالة نفسها.

بزوجاتهم[١١٠] ووفقا لوصيتها فإنها تحدد السبب الذي جعلها تفخم توصيفها العاطفي لأولادها، وتتخذ موقفا ايجابيا في سرد الحسنات.

نلاحظ جو الوصية الكنسي، والروحي الذي يظلل بنوره أسرتها، والايجابية الطاغية، مع إشارات واضحة إلى حبها لزوجها ورضاها عن حياتها واستقرارها العاطفي، وان هذا الاستقرار يسيطر على اتجاهات تفكيرها الذي يكشف بينات الاتصال الأمومي في خصوصيته الإنسانية. إنها تقاوم الحياة بالأدوات التي تمتلكها وبالمعرفة التي حصلتها، هي المداومة على الصلاة.[١١١] انه البحث الغريزي لتحقيق ذاتها، وهي العفوية اللا إرادية العلامة الأساسية للفكر للخلاق. فمن الجليل في الروح الإلهية تستمد جليل آخر داخل ذاتها البشرية، ذلك أدى إلى تكوين مهاراتها الذاتية في اتجاه التكوين الأخلاقي الذي يبشر بالخير ويتعالى عن التفاصيل. ذلك ضمن التزامها الأساسي الأمومي الذي تشكل ضمن ظروف ثقافية وتاريخية خاصة. إن تمثلها لذاتها ولأسرتها عبارة عن بناء مشترك بينها وبينهم قابل للتعزيز أو التغيير، لكن في حالتها نجد التعزيز هو الغالب.[١١٢]

حين بادرت ابنها بسؤالي:لماذا احتفظت بهذه الرسائل؟ أجاب برقة "ذكر منها.بعد عمر طويل، ماذا يبقى لي منها؟ بعض الرسائل استخدمتها في لوحات كولاج، إذ اعتبرت إن هذه الرسائل تبقى كفن. الرسائل تحيي ذاكرتي، شكلت مصدر قوة لذاتي المضعضة في الهجرة. من الذي حرسني كل هذه الأيام ؟ مكاتيبها جد مشجعة، كانت تدفعني للقتال. إذا كان الواحد تعبا فإنها تريحه وتزوده بطاقة المتابعة".

٥-أليس فنيا:

إن الجلال الإلهي الذي تعبر عنه، سيكون مدخلها لإجلال الطبيعة كما لاحظنا في رسائلها ولإجلالها الفن. مع أن لغتها بسيطة وعامية، إلا أنها تعبر عن حسها الجمالي حيال الطبيعة فيستوقفها شدو البلبل صباحا على شجرة الرمان قرب نافذتها تتغزل بجماله وبجمال الطبيعة في الشتاء والربيع، الخ. لئن خلت لغتها من البلاغة، إلا أنها تمكنت من الإفصاح عن أحاسيسها الجمالية. عن ميولها الفنية سألت ابنها، أجاب أنها "كانت تحب الرسم، تعلمته قليلا ظروف المجتمع في الأربعينات في طرابلس لم تكن مشجعة". هل ورثتم منها توجهكم الفني؟"بالتأكيد.أخي الكبير ذواقة للفنون وأخي الثاني مهندس ونحات على مستوى عالمي في أميركا. أنا مهندس أيضا وأحب الرسم والتصوير، وهي أكثر من شجعني على دراسة الفن".

-وحدة وتشتت:

إن نظرنا في مجموع الرسائل التي بين أيدينا، وان نظرنا في معارض الابن الأربعة الأولى(كولاج)، سوف نلحظ وحدة الرسائل وتشتت الأعمال الفنية (المحتوى، التقديم، الأسلوب)، لا نهدف إلى إيجاد التشابه أو الاختلاف بينهما، إنما التبصر في كيفية تمثل الابن لامه عبر رسائلها وتجسيدها في أعماله الفنية التي تظهر مكانتها

---

[١١٠] " وانتم يا أولادي الأربعة أطلب منكم وأرجوكم أن تحبوا نساءكم وان تحافظوا عليهن لا لأنها الزوجة فقط. بل لأنها أم أولادكم. شجعوها بقولكم دائما بأنها الزوجة المثالية التي اخترتموها من بين نساء الأرض كلها. فالتشجيع والتذكير بالحسنات لكل واحد منكم تستمر الحياة بالهناء والسعادة والحب. ذكروها بأنها ما زالت جميلة كما عرفتموها لأول مرة. ولا يشيخ فيها سوى عقلها. اعني بهذه الكلمة(النضوج والحكمة) حيث ازدادت جمالا على جمال".

[١١١] حين سألت ابنها ما رأيه في الوصية، خاصة أنها لا تحمل أسرارا عائلية بل تقدم الأسرة على طبق من الخير، أجاب " جميلة لكني أحسستها مثالية جدا".

[١١٢] انظر بوريس سيرولنيك الذي يفصل كيف نكون محكومين بالصورة التي نصنعها لأنفسنا.

Boris Cyrulnik, Parler d'amour au bord du gouffre, Odile Jacob, Paris 2004, pp.110-112.

الواسعة، وكشف طريقة تمثله لها في تبادله الأدوار معها واستعارة لسانها وسرد حكايتها، إذ جمع عدة رسائل منها في رسالة واحدة، ووضعها في اللغتين الإنكليزية والفرنسية وأدرجها في لوحاته التي عرضها في كندا. نجد لازمة لدى كل منهما: تخلق كتابتها في رسائلها فضاء/زمنا مميزا تسكنه الأم، بمعزل عن العالم، يركز على العناية بالمرسل إليه كقاعدة ضرورية للتبادل. ونرى حضور الأم بقوة في لوحاته، كما لو أن الإيحاءات تصعد منها. كأن رسائلها حدث حقيقي له أصداؤه في حياة الابن، وحوار لا ينقطع. تمثل الرسائل نموذج الحب الأمومي المنسجم مع هويتها، ويشبه مزج الابن الأنواع في كولاجه (الرسائل، الرسم، الصور) لعبة الغميضة التي يحاول الابن من خلالها اكتشاف نفسه. إن رسائلها في لوحاته تشكل كتابة تحت أرضية، نوع من الأسرار التي يحاول كشف تدابيرها الخفية لمعرفة هويته بمرآة رسائل أمه.

إن الشحنة الانفعالية العظيمة التي تشكل حياة الأم اليومية، تنمو خلسة في جلدة الابن وفنه[١١٣]. بهذا الشكل تستعيد حياته الإحساس المشترك ومنطقه الخاص. إن مجموع أعمال الابن الاربعة[١١٤] تشبه إلى حد كبير سيرته الذاتية ويومياته التي تتشابه والرسائل في الوظيفة، فهما مرآة وركيزة للرسم الذاتي، وبحث عن الذات يمر عبر نظرة الآخر، الأم. الرسالة نافذة على عالم الأمهات في الأمس. لقد مثلت رسائل أمه وظائف ثلاثة بالنسبة إليه: بديل عن اليوميات الحميمة وفضاء لمعرفة الذات واستقصاءها، ولكنها تغذي في الوقت نفسه، مؤلفاته الفنية بحيث أنها كشفت عن توقه الفني في التصوير والكولاج وليس الكتابة. يمكننا تصنيف مراسلة الأم على أنها تجربة أساسية موحية أيضا لمواجهة آلام الغربة والرغبة في الاجتماع العائلي، وإفراغ الشحنة العاطفية. أما أعماله فإنها موسومة بالخوف من الغربة والقلق من التشتت[١١٥]، تركز على مفارقة الغياب والحضور،[١١٦] وإيجاد معنى للوجود في فضاء لا يسيطر على معالمه وقيمه وعاداته. هكذا حول دراما الافتراق إلى تخيل، وحولت الأم الافتراق إلى فعل كتابي تراسلي محصور في إطار أمومتها.[١١٧]

---

[١١٣] هكذا ترجم الفنان Camille Zakharia في أعماله رسائل أمه حين عاش في كندا وعرض أعماله فيها" Mon fils cheri, nous avons mangé à midi des feuilles de vigne farcies et du "kebbé au four" avec du taboulé et des frites. Mon dieu, j'aurais tant voulu que tu sois là!(…) je jure que nous avons tout fait pour rejoinder au moins l'un d'entre vous durant l'après-midi, mais évidemment, ça n'a pas marché. Dieu maudisse ces téléphones et leurs propriétaires! Jamais nous n'avons pu réussir à te parler.(…) Après le repas, nous avons fait du café turc et comme à l'habitude, ta tante a insisté pour nous prédire l'avenir en lisant dans le marc.Elle m'a annoncée que l'un d'entre vous viendrait nous render visite bientôt. J'espère qu'elle ne se trompe pas et que je vais tous vous voir."Ces pays qui m'habitent (2001).

[١١٤] المعارض الاربعة هي:

Hanna's Diary: An Immigrant Story, Mulicultural Arts Resource Centre 1541 Barrington, Suite 401, Halifax, Nova Scottia (1998). Stories From The Alley, Artemisia Gallery, 700 Northe Carpenter Street, Chicago, Illinois.(1999).Assembling Places, Dal Tech E XIBITION room, 5410 Spring Garden Road, Halifax, Nova Scotia.1999). Ces pays qui m/habitant (The Lands Within Me), Canadien Museum of Civilisation, 100 Laurier Street, Hull, Quebec.(2001).

[١١٥] قال في مقابلة معه:

"Maybe the fragmentation of my identity accounts for why I always ended up working with collage" he explains. "the traveler, the outsider, displacement, fragmentation-all these are elements repeated in the works I have completed in the last few years. The common thing is identity, the search for a place to fit in."
Confidential Bahrain, September 2003.

[١١٦] في الرسائل التي جمعها الابن في رسالة واحدة باللغة الفرنسية تقول الأم:

Maudite soit la guerre qui a dispersé tous mes enfants! Vous êtes tous à l'autre bout du monde. Ton père et moi passons " nos soirées entre ses quatre murs, avec personne à qui parler."Ces pays qui m'habitent.(2001)

[١١٧] " Mon dieu, c'etait le bon temps, alors! Je vous avais tous autour de moi. J'ai une photo de vous tous quand vous étiez petits. Elle est devant moi, dans le salon. Tous les jours, je brûle de l'encens à côté pour que le Seigneur vous protège du Malheur et du mal, toi et tes frères, Sur la photo, le mari de ta tante, qu'il repose en paix, se tient derrière toi et te tient par les épaules comme ferait un père affectueux. Il avait une préférence pour toi. Tu étais le seul qu'il emmenait à la

إذا كانت الرسائل ضرورة له، فذلك لأنها تؤلف فضاء تضحويا/قربانا، حيث يقبل أن يبقي الكائن العزيز عليه على مسافة، لكنه يربح في وحدته في هذه المسافة سلاح الإبداع من أجل خلق بيته الخاص وبناء تاريخه الثقافي الخاص عبر ذكرياته المتشظية في أمكنته المختلفة عن موطنه الأصلي، فيدفعها جميعها في قالب موحد يرضي عيشه[١١٨]. أما الرسالة فإنها تشكل "طبعة" حسب العبارة التي تنتمي إلى فن التصوير، وانطباعا عن اليومي المعاش للذات، موجه إلى الابن المحبوب التي تملي فجوات ذاكرته بخطوط الحياة العائلية.[١١٩] يمكننا القول أن لوحاته تتقاطع والرسائل. فأين تنتهي الذكريات وأين يبدأ التخيل؟ إن وقائع الغربة والافتراق مثل أحجار مجتمعة تتحول إلى جدار والى بيوت تشهد على تاريخ إنساني لمعاش اللبنانيين عموما. لكن تبقى أعمال الابن، وان استخدمت رسائل الأم ووازنت بين جروح الهجرة وجروح الأمومة، أكثر عمومية ورسائل الأم أكثر خصوصية، مع أن الموضوع نفسه: الشوق والفقد والانتماء. إذ لا فرق بين الخاص والعام في الرسائل وفي لوحات الابن المستوحاة من رسائلها ومن طفولته. على أن الأم تركز في رسائلها على افتراض حضور الابن في النص ومحادثته وسؤاله، بينما الابن ينطلق من رسائلها نحو اكتشاف ذاته كمغترب، واكتشاف شبهه بأي مغترب آخر، وبالتالي عدم تفرده في هذه الوضعية. وكذلك تفعل الأم حين تذكر في رسائلها الألم الذي تعانيه إحدى الأمهات من جراء هجرة ابنتها بعد زواجها[١٢٠].

ان استرجاع الماضي العائلي واستحضاره يقوم به الابن في أعماله الفنية. ويعبر فنه عن انتصار قيم الأمومة والرغبة في إعادة إحيائها فنيا، معيدا بذلك تشكيل هويته في أمكنته الجديدة بعيدا عن دراما الافتراق. كما لو انه يكمل مهمة كانت مرغوبة من الأم. إذا تندرج هذه المحاولة ضمن محاولة بناء الذات الخصبة، والاستئثار بهوية محررة من الحدود الجغرافية والثقافية، استنادا إلى أمومة يقينية دنيوية وروحية، وصولا إلى هوية غير قلقة.

هكذا تنتظم ممارسته الفنية حول أنموذج التكوين الجديد، حيث يداوي جرح فراق الأم، ذلك كي يستعيد وجوده الذاتي، فيضع الماضي بين قوسين، وهذا شرط الانفتاح على الحاضر وعلى مجرى الحياة، فنصف إجابته بعملية التمثل الاستيعابي الخلاق. لكن تحقيق هويته الجديدة ما كان ممكنا دون الاستناد إلى مرجعية الأم كمنجز عاطفي متحقق بإبعاده الرمزية والثقافية لكي يتجاوز حدود هويته الأصلية، إذ كان عليه عبور حدود الأمومة واستيعابها للانطلاق نحو آفاق جديدة لهويته. إن وقوف أمه على حدود أمومتها ودفاعها عنها في رسائلها المتواصلة، أفضى به إلى استيعابها وتجاوزها في جمالية الانفتاح والالتقاء.

خلاصة:

---

pêche.(…) Tout le monde sourit sur la photo, sauf toi. Tu as toujours été serieux, même tout petit. Tu prenais toujours les choses au sérieux."Ces pays qui m'habitent 2001.

[١١٨] هذا ما أنجزه Camille Zakharia في معرضه:.Cultivate your own garden, Daltech Atr Gallery حيث ابتكر عالمه الخاص.

[١١٩] " Je n'ai pas besoin de te dire qu'il faut économiser le plus d'argent possible.(…) Dieu veuille que tu puisses acheter une parcelle de terrain ici, dans le village, pour te bâtir une maison où tu pourras t'installer avec ta famille. Que Dieu hâte le jour où nous serons réunis pour nous rejouir tous ensemble!". Ces pays qui m'habitent.(2001).

[١٢٠] " Je plains sa mère. Elle n'a pas arrêté de pleurer pendant le mariage. C'est difficile pour elle de penser que Jumana va bientôt la quitter. Elle me rappelait dans quelle état j'étais quand ton frère a immigré en Amérique, et qu'ensuite vous êtes tous partis les uns après les autres! A la fin il ne me restait plus de larmes pour pleurer".

رغم معاناة الأم لبعد أبنائها عنها، إلا أنها لم تقع في تقديس المعاناة والتضحية بالذات، بمعنى أن أمومتها انقضت حقا ولم يبقى لها غير التكرار وتجزية الوقت! ففي ذلك حجب لفترة زمنية من حياتها، إذ ارتضت فراق أولادها لسبب جوهري يتلخص بتدبير حياتهم، فلم تتوقف عند جرح الأمومة. لذلك لاحظنا أن خطابها لا يتعصب إلى الماضي بل يقدم حاضرا ومستقبلا كإطار حاضن لأمومتها.

كيف يمكن في هذه القراءة أن نعيد التفكير في وضع الفرد/الأم، في ذاتيتها لا في عمومية الدور الأمومي، انطلاقا من تجربة أمومة عبر الحدود؟

إن ذات الأم ليست فارغة تحتاج إلى الأعمار، لا تتسم كفرد بعدم الاكتمال والسلبية. فمعنى هوية الأمومة لم تفتقر دلالته ولم ينحسر إلى مجرد تعبير مجازي للتشبث بالأرض والجذور[١٢١]، بل تتشبث بأمومتها وبقدرتها على خلقها بنفسها ضمن ظروفها المستجدة: الحرب وهجرة الأولاد. فلو استعدنا طريقة زواجها حيث أن خيارها للزوج المناسب لها لم يكن شأنا عائليا، لوجدنا أن أليس صنيع نفسها الذي لا يتناقض وموروثها الإيماني، إذ خرجت عن السياق الاجتماعي/الثقافي/الاقتصادي لزمنها، هي المولودة في الربع الأول من القرن العشرين[١٢٢]. ذلك على مستوى العمل وإعالتها أسرتها، وميولها الرياضية والفنية، وتأخرها في الزواج، وطريقة اختيارها الزوج، ثم متابعتها عملها، وكتابتها الرسائل. وإذا أضفنا إلى ذلك مرونتها وتأقلمها مع ظروفها المستجدة[١٢٣]، فإننا لا نشعر عبر رسائلها أنها قليلة الحيلة، بل هي امرأة قوية صنعت أمومتها على مقاسها ووفق ظروفها الخاصة. لئن سايرت إلى حد ما، طلبات الزوج ومحيطه القروي، إلا أنها لم تكن امرأة مهمشة في أسرتها الأولى أو الثانية. إن التجربة من حيث هي حدث فريد توجد المعنى الأساسي للأمومة الذي لا يتحصل إلا بدلالة السياق الثقافي/الاجتماعي. غير أن كل إعادة لتشكيل السياق هو فعل معرفي، أي أن الواقع يتعلق أكثر بأفعالنا مما نفكر فيه. يشير ذلك إلى أن أليس لم تعش تحت وطأة التصنيف والترتيب في كيفيات تدبير يومياتها كأبنة وكزوجة وأم. أنها ببساطتها تتعامل مع اليومي وتديره وفق وقدراتها وظروفها. امرأة عملية لا تبدو من رسائلها ومن أقوال ابنها أنها تتبع مثالات وتحاكيها كما افترضنا في المقدمة.

إن التعميم يقتل النظر إلى التنويعات في المعيش، فكل فعل معياري ينطوي على إطلاق حكم ما، يحجب عنا دلالات التجارب والاعتراف بها. تقتضي المحاكاة التموضع في فضاء محايد لا يخضع للتجربة وللمتغيرات، بينما خوض التجارب يعني التموضع في فضاء المتغيرات. أليس من وجهة نظرنا قد نمّت ورعت نوع من الفردية المتحررة التي شكلت ملاذها وجوهر مقاومتها الخاصة بها. تركت لأولادها ولزوجها حرية الانهمام بذواتهم، واتبعت سياسة حقهم في اختيار نوعية الحياة التي يرغبون. لم نجد علاقات قوة بينها وبينهم، ولم تبدو ضحية لهذه لظروف، بل امرأة عاقلة تستوعب المتغيرات وتحولها إلى مصدر ايجابي للتغيير. حارسة لشجاعة أولادها وتماسكهم، تمدهم بالطاقة التي تعينهم على متابعة حياتهم في المهجر والاستفادة منه. تقبل من جهة أخرى دلال زوجها وعدم صبره على الغربة– ربما تواطأت ضمنا معه! تتعامل بندية مع ذكور أسرتها ومن موقع

---

[١٢١] كلمات مثل الوطن ولبنان لا ترد في رسائلها.

[١٢٢] لقد درجنا على القول إن مكانة النساء الاقتصادية ضعيفة وان النساء محصورات في المجال الخاص دون العام، وأنهن يحاكين نماذج جاهزة وموروثة بدل ابتكار انماط عيش مختلفة ومتعددة، خاصة في القرن الماضي.

[١٢٣] العيش في القرية بدل المدينة وهجرة الأبناء.

القوة الايجابية وليس التسلط. استقبلت التغيرات في دورها كأم على طريقتها وأعادت إنتاجها بصورة مختلفة في ممارستها الاجتماعية تجاه الأولاد، فرأت في هذه التغيرات أبوابا مفتوحة على العلم والرزق والاستقرار لأولادها. لذلك ساندتهم في غربتهم فبدت أما صلبة وقوية، هذه هي بصماتها الخاصة بها. ربما ساهم في ذلك كونها تنتمي إلى أسرة غير بطركية طالما أن الأب توفي باكرا، وزوجها رغم غرقه في نرجسيته إلا انه كان يحبها ومتمسكا بها ولا يريد الافتراق عنها، فترك لها القيادة.

يبدو أن الأمومة عبر الحدود تمثل وضعا استثنائيا يؤول إلى ابتكار أساليب خاصة بها، لا سيما وان هذه الوضعية تفتقر إلى نموذج للمحاكاة آنذاك، فأسرتها لم تتعرض لهذه التجربة وأسرة زوجها لم تغادر القرية[١٢٤]. تتسم هويتها بالاستقرار وتبتعد عن القلق، إذ يقع الانسجام بين صورتها عن نفسها وسلوكياتها. هذا التطابق بين الصورة والسلوك والذوبان في طبيعة كريمة، كشف عن هوية دنيوية لا تتناقض ودينيتها. ذلك يعاكس ما حدث مع جيل من أجيال أمهات المنتصف الثاني من القرن العشرين مع شيوع الحداثة الثقافية/الاجتماعية ونشوء التيارات السياسية اليسارية. حيث نشهد على حضور هويات دنيوية قلقة في انتماءاتها الطبقية، الثقافية، النسوية، الدينية، الطائفية، والسياسية. أما أليس فإن حياتها ابسط تتميز بمعايير واضحة وافق الانتظار واضح أيضا بالنسبة إليها. إنها تنتمي إلى نموذج واضح الحدود والمعايير. فهناك مشابهة بين المرجعي المعيش والمتخيل، بين الواقعي والمحتمل، انه انسجام الهوية.

هذا ما حضني على إعادة النظر في ما نسميه بالتقليد، إذ يقتضي التقليد نقل فترة زمنية ثقافية يمكن تعيين مضمونها من خلال عناصر مختلفة: المعتقدات، الايمانات، المعايير، العادات، المؤسسات، المعارف، حيث تكتسب جميعها أهمية أخلاقية واجتماعية ودينية. على أن أليس لم تبدو لنا تقليدية وفق هذا التعريف، إذ تعرضت في مسارها الذاتي، وكما ذكرنا، إلى تغيرات تجاوبت معها واستوعبتها، دون صراعات وأزمات نفسية، وأوجدت صيغ خاصة بها. لم تدخل في مواجهة حادة عنوانها الصراع بين التقليد والحداثة كما درجنا على فهم القضايا الثقافية/الاجتماعية. ذلك يشير إلى قصور رؤيتنا العلمية للظواهر الثقافية/ الاجتماعية، التي اطرناها في هذه الازدواجية الوهمية، حيث أعاق هذا المنظور تبين نبض المعيش وتجاربه المتعددة وعمق العلاقات الاجتماعية ومساراتها المتباينة، ففرضنا بذلك تصوراتنا على الوقائع. ساهمت أليس في الحراك الاجتماعي في تحملها مسؤوليات أسرتها الأولى والثانية. ورأينا أيضا الدور الايجابي للعائلة الممتدة في التعاضد الأسري[١٢٥]. ربما ذلك جعل أليس رغم كونها القناة الناقلة للقيم الدنيوية والروحية لأولادها في تحول مستمر فتتفق زمنيا رغم فارق العمر بينها وبين أولادها مع تجاربهم وتتماشى مع تطلعاتهم في الزواج والفن. نستنتج أنه لا يوجد في مسارها ما يمكن أن نطلق عليه بالتقليد الذي يلخص ليس فقط المحاكاة إنما أيضا الثبات على وضعية دون حراك. إذا كانت التجربة بناء ثقافي، فإننا نراها متغيرة مع الزمن، فهل تعلمت أليس من تجربتها أن لا تقع فريسة الضحية والتضحية بالذات الامومية، بل إسباغها بصور جديدة كعلامة على التكيف والتوافق النفسي؟ إن النزعة

[١٢٤] غالبية الأمهات اللبنانيات يعشن اليوم، هذا النمط من الأمومة عبر الحدود.

[١٢٥] ساندت أهلها وأختها ساعدتها في تربية الأولاد حتى بعد زواجها ، خاصة وأنها لم تنجب.

التفاؤلية الايجابية الملفتة التي تبنتها حول المستقبل، ونزعتها الدينية التي تحتفي بالأيمان وتضفي قيمة روحية على تجربة أمومتها، وشخصيتها المرنة اعطت بعدا ذاتيا يتكيف مع الموروث ويتفق مع القبول بالجديد.

علينا العودة إلى الإطار الثقافي التي أنجزت التجربة في إطاره، إطار التاريخ فيه مكتوب في الحاضر، وفق سياقات اجتماعية/سياسية/اقتصادية، فليست التجربة أمرا بديهيا محجوبا عن سياقاته. كما أن الذات هي ذات في وضع معين يندرج في مجال استدلالي وثقافي أوسع، وليس معطى طبيعي.[١٢٦] علينا الحذر من التعميم الإيديولوجي الذي يطمس المختلف ويعمم التجانس والتنميط. بالمقابل فان الانتصار إلى الخطاب الثقافي يجب أن لا يحجب تجليات الذات العائشة والعارفة والقائلة والعاملة في وعبر تجاربها. فالذات منتجة للثقافة كما هي ناتج عنها، في تفاعل دينامي يتجاوز التناقضات النمطية: حداثة/تقليد، خاص/عام، داخل/خارج، دين/دنيا، ذات فردية نشطة/ ذات جماعية في عطالة. تتداخل هذه العناصر وتتشابك في حركة لولبية تشير إلى درجات وتلوينات تتطلب التظهير.

أليس تشبه شخصيات المسرح الكلاسيكي واضحة المعالم، بينما جيل الأمهات اللاحق عليها فإنه يشبه شخصيات المسرح الحديث حيث أن الشخصية مركبة من شخصيات عدة تمتاز بالالتباس.

[١٢٦] Joan Scott, "The Evidence of Experience", Critical Inquiri, 17,4, été 1991. في : مفاهيم عالمية، التجربة، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٥، صص.٨٦-٨٧.